مدارك النظر في مسألة التمكين

نقض أصل الأصول العقدية عند الإخوان المسلمين

عبدالصمد بن أحمد السلمي

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كثيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

أما بعد؛ فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

وبعد: فهذه كتابة أرجو من الله سبحانه وتعالى النفع بها، في مسألة عظيمة من مسائل العقيدة، وقع فيها كثير من الخلل في الاعتقاد، فوقع بسبب ذلك كثير من الخلل في القول والعمل، وهي "مسألة التمكين"، ناصرا ذلك بأدلة الكتاب والسنة وفق منهج السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

أسأل الله لي ولجميع المسلمين النفع والفائدة.

وكتب

عبدالصمد بن أحمد السلمي

السبت ١٨ رجب ١٤٤٦ هـ.

الموافق 18 جانفي 2025 ن.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله- عند كلامه على وقوع الخلط بين معنى الاستغاثة والتوسل من لدن بعض المنتسبين للعلم: ‹‹وأريد أن أعرف من أين دخل اللبس على هؤلاء الجهال؟ فإن معرفة المرض وسببه يعين على مداواته وعلاجه، ومن لم يعرف أسباب المقالات -وإن كانت باطلة- لم يتمكن من مداواة أصحابها وإزالة شبهاتهم››. الاستغاثة في الرد على البكري (ص 115).

مدخل

الإيمان بالقدر في الشرع

الإيمان بالقدر من أركان الإيمان الستة التي يجب على المسلم الإيمان بها، وقد تظافرت أدلة الكتاب والسنة على إثبات هذا الركن العظيم.

قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾[الأحزاب:38].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[القمر:49].

وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[الْفُرْقَانِ:2].

وفي حديث جبريل عليه السلام المشهور أنه قال: [أخبرني عن الإيمان، قال ﷺ: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)، قال : صدقت]، [1].

وقال ﷺ: [لا يؤمنُ عبدٌ حتى يؤمنَ بالقدَرِ خيرِه و شرِّه ، حتى يعلمَ أنَّ ما أصابه لم يَكن لِيخطِئَه، و أنَّ ما اخطأه لم يكن لِيُصيبَه].[2].

وقال الإمام الحافظ عبدالغني المقدسي: (وأجمع أئمة السلف من أهل الإسلام على الإيمان بالقدر خيره وشره حلوه ومره قليله وكثيره، بقضاء الله وقدره لا يكون شيء إلا بإرادته ولا يجري خير وشر إلا بمشيئته خلق من شاء للسعادة واستعمله بها فضلا، وخلق من أراد للشقاء واستعمله به عدلاً، فهو سر استأثر به، وعلم حجبه عن خلقه، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون). [3].

وهذا كافٍ في بيان منزلته.

---

[1] رواه مسلم (رقم 8).

[2] رواه الترمذي (2144)، وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (2439).

[3] عقيدة الحافظ عبدالغني (ص 77).

الفرق بين الأمر الكوني والأمر الشرعي

ذكر الإمام ابن قيم الجوزية أربعة عشر شيئا مما ينقسم إلى كوني وشرعي، وهي: (القضاء والحُكْم والإرادة والكتابة والأمر والإذن والجَعْل والكلمات والبعث والإرسال والتحريم والإيتاء)، ثم قال: (فما كان من الكوني فهو متعلِّق بربوبيته وخلقه، وما كان من الديني فهو متعلّق بإلهيته وشرعه، وهو كما أخبر عن نفسه سبحانه له الخلق والأمر، فالخلق قضاؤه وقدره وفعله، والأمر شرعه ودينه، فهو الذي خلق وشرع وأمر، وأحكامه جارية على خلقه قدراً وشرعاً، ولا خروج لأحد عن حكمه الكوني والقدري.

أما حكمه الديني الشرعي فيعصيه الفجار والفساق، والأمران غير متلازمين، فقد يُقضى ويُقدِّر ما لا يأمر به ولا شرعه، وقد يشرَّع ويأمر بما لا يقضيه ولا يقدره، ويجتمع الأمران فيما وقع من طاعات عباده وإيمانهم، وينتفي الأمران عما لم يقع من المعاصي

والفسق والكفر، وينفرد القضاء الديني والحكم الشرعي في ما أمر به وشرعه ولم يفعله المأمور، وينفرد الحكم الكوني فيما وقع من المعاصي إذا عرف ذلك).[1].

ثم قال ابن القيم: (مسألة الأمر والإرادة، هل [هما] متلازمتان أم لا؟

والصواب: أن الأمر يستلزم الإرادة الدينية، ولا يستلزم الإرادة الكونية، فإنه لا يأمر إلا بما يريده شرعاً وديناً، وقد يأمر بما لا يريده كوناً وقدراً، كإيمان من أمره ولم يوفقه للإيمان مراد له ديناً لا كوناً، وكذلك أمر خليله بذبح ابنه ولم يرده كوناً وقدراً، وأمر رسوله بخمسين صلاة ولم يرد ذلك كوناً وقدراً، وبين هذين الأمرين وأمر من لم يؤمن بالإيمان فرق، فإنه سبحانه لم يحب من إبراهيم ذبح ولده، وإنما أحب منه عزمه على الامتثال، وأن يوطن نفسه عليه، وكذلك أمره محمداً ﷺ ليلة الإسراء بخمسين صلاة، وأما أمره من علم أنه لا يؤمن بالإيمان سبحانه يحب من عباده أن يؤمنوا به وبرسله، ولكن اقتضت حكمته أن أعان بعضهم على فعل ما أمره ووفقه له، وخذل بعضهم فلم يعنه ولم يوفقه، فلم تحصل مصلحة الأمر منهم، وحصلت من الأمر بالذبح). شفاء العليل (2/ 379).

وقال الشيخ عبدالعزيز ابن باز رحمه الله: (الفرق بينهما أنهما يجتمعان في حق المطيع ويفترقان في حقّ العاصي والكافر، فالله سبحانه له إرادتان: قدرية وشرعية، قدرية سبق بها علمه ومرادها نافذ كما قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس:82]، القدرية نافذة قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام:125].

وهنالك إرادة شرعية كما قال جل وعلا: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ [البقرة:185]، يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:28]، هذه إرادة شرعية، قد أراد اليسر وأمر عباده بما فيه يسرهم، لكن قد يحصل هذا لبعض الناس وقد لا يحصل اليسر، قد يبتلى بالعسر، قد أراد من الناس أن يصلّوا وأن يصوموا وأمرهم بهذا وأن يعبدوه وحده، فمنهم من صلى وصام وعبد الله، ومنهم من كفر وهم الأكثرون، هذه إرادة شرعية.

فالمطيع الموحد اجتمع فيه الإرادتان، وافق إرادة الله الكونية ووحد الله وأطاعه، ووافق الإرادة الشرعية لأنه بطاعته لله وتوحيده لله قد وافق الإرادة الشرعية أيضا.

---

[1] شفاء العليل (2/ 377).

أما العاصي فقد وافق الإرادة الكونية ولكنه خالف الإرادة الشرعية والأمر الشرعي، وهكذا الكافر). فتاوى الجامع الكبير بالرياض.

خطورة الزلل أو الخلط في مسائل القدر؛ مثل عدم التفريق بين الأمر الكوني والأمر الشرعي

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (الخوض في ذلك -أي: القدر- بغير علم تام أوجب ضلال عامة الأمم، ولهذا نهى النبي ﷺ أَصْحَابَهُ عَنْ التَّنَازُعِ فِيهِ). مجموع الفتاوى (18/ 137).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (من أعرض عن الأمر والنهي والوعد والوعيد ناظرا إلى القدر فقد ضلّ، ومن طلب القيام بالأمر والنهي معرضا عن القدر فقد ضلّ، بل المؤمن كما قال تعالى: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾). مجموع الفتاوى (8/ 46).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية مبيّنا أصناف الخائضين في القدر: (أهل الضلال الخائضون في القدر انقسموا إلى:

1- المجوسية الذين كذبوا بقدر الله وإن آمنوا بأمره ونهيه.

2- المشركية الذين أقروا بالقضاء والقدر وأنكروا الأمر والنهي.

3- الإبليسية الذين أقروا بالأمرين؛ لكنهم جعلوا هذا متناقضا من الربّ سبحانه).مجموع الفتاوى (3/ 75-76 ملخّصا).

وقال مبينا أنّ قول المتصوفة مثل قول المشركين: ﴿لو شاء الله ما أشركنا﴾: (هؤلاء المتصوفون الذين يشهدون الحقيقة الكونية مع إعراضهم عن الأمر والنهي، شر من القدرية المعتزلة ونحوهم، أولئك يشبهون المجوس، وهؤلاء يشبهون المشركين.. والمشركون شر من المجوس). مجموع الفتاوى (3/ 72).

الإنسان مطالب بأداء الأمر الشرعي وليس مطالبا بحصول الأمر الكوني

قال تعالى: ﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾، وقال تعالى: ﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء﴾.

فالهداية المثبتة في الآية الأولى هي هداية الدلالة والإرشاد، والهداية المنفية في الآية الثانية هي هداية التوفيق والإلهام.

قال الإمام ابن قيم الجوزية مبينا مراتب الهداية: (الهدايةُ لها أربعُ مراتب، وهي مذكورةٌ

في القرآن:

المرتبة الأولى: الهداية العامَّة؛ وهي هدايةُ كلِّ مخلوقٍ من الحيوان والآدميِّ لمصالحه التي بها قيامُ أمره.

قال الله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ١ - ٣]؛ فذكر أمورًا أربعة: الخلق، والتسوية، والتقدير، والهداية، فسوَّى ما خلقه وأتقنه وأحكمه، ثمَّ قدَّر له أسبابَ مصالحه في معاشه وتقلُّباته وتصرُّفاته، وهداه إليها، والهدايةُ تعليمٌ؛ فذكَر أنه الذي خلقَ وعلَّم، كما ذَكَر نظيرَ ذلك في أول سورةٍ أنزلها على رسوله...

وقال تعالى حكايةً عن عدوِّه فرعون أنه قال لموسى: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَامُوسَى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٤٩ - ٥٠].

وهذه المرتبةُ أسبقُ مراتب الهداية وأعمُّها.

المرتبة الثانية: هدايةُ البيان والدَّلالة التي أقامَ بها حجَّتَه على عباده. وهذه لا تستلزمُ الاهتداءَ التام.

قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧]، يعني: بيَّنَّا لهم ودلَلْناهم وعرَّفناهم، فآثروا الضلالةَ والعمى.

وقال الله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

وهذه المرتبةُ أخصُّ من الأولى، وأعمُّ من الثالثة، وهي هدى التوفيق والإلهام؛ قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥]، فعَمَّ بالدعوة خلقَه، وخَصَّ بالهداية من شاء منهم.

وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، مع قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، فأثبتَ هدايةَ الدعوة والبيان، ونفى هدايةَ التوفيق والإلهام. وقال النبيُّ ﷺ في تشهُّد الحاجة: «من يهد اللهُ فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له».

وقال تعالى: ﴿إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧]، أي: من يضلُّه اللهُ لا يهتدي أبدًا.

وهذه **الهدايةُ الثالثةُ** هي الهدايةُ الموجبةُ المستلزمةُ للاهتداء، وأما الثانية فشرطٌ لا مُوجِب، فلا يستحيلُ تخلُّفُ الهدى عنها، بخلاف الثالثة فإنَّ تخلُّفَ الهدى عنها مستحيل.

المرتبة الرابعة: الهدايةُ في الآخرة إلى طريق الجنة والنار.

قال الله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢ - ٢٣]). مفتاح دار السعادة (1/ 234-236).

قال العلامة عبدالرحمن بن سعدي: (الهداية نوعان: هداية البيان, وهداية التوفيق. فالمتقون حصلت لهم الهدايتان, وغيرهم لم تحصل لهم هداية التوفيق. وهداية البيان بدون توفيق للعمل بها, ليست هداية حقيقية) تيسير الكريم الرحمن (ص 2).

والمسلم مطالب ببذل جهده في دلالة الخلق وإرشادهم إلى الحق والهدى، وليس مطالبا بحصول القبول والاستجابة منهم، وهذا التفريق بين الهدايتين راجع إلى التفريق بين الأمر الشرعي والأمر الكوني.

قال تعالى: ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [النحل: 82].

وقال تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ [الشورى: 48].

وقد نهى الله تعالى نبيه الكريم ﷺ أن يهتمّ ويغتمّ لعدم استجابة المدعوين من بني قومه لدعوته، وهذا النهي عامّ لجميع أمته.

قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: 8].

وقد استدلّ العلماء بهاته الآية على إبطال قول المعتزلة والقدرية أن الإنسان يخلق فعله وليس بتقدير الله تعالى، قال العلامة القرطبي: (هذه الآية ترد على القدرية قولهم على ما تقدم; أي: ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا﴾ تريد أن تهديه ، وإنما ذلك إلى الله لا إليك ، والذي إليك هو التبليغ) الجامع لأحكام القرآن (14/ 326).

قال العلامة مكي بن أبي طالب القرطبي: (المعنى: أن الله نهى نبيه ﷺ أن يغتمّ بمن كفر به وألاّ يحزن عليهم، وهذا مثل قوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ [الكهف: ٦] أي: قاتلها). الهداية الى بلوغ النهاية (9/ 954).

قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: 6].

وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: 3].

قال الإمام ابن قيم الجوزية مبينا مراتب العلم: (مراتب العلم والعمل ثلاثة:

روايةٌ، وهي مجرَّد النّقل وحمل المرويِّ.

ودرايةٌ، وهي فهمه وتعقُّل معناه.

ورعايةٌ، وهي العمل بموجب ما علمه ومقتضاه.

فالنقَلة همَّتهم الرِّواية، والعلماء همَّتهم الدِّراية، والعارفون همَّتهم الرِّعاية). مدارج السالكين (2/ 297).

وهذا السلوك (أداء الأمر الشرعي وترك التعلّق بحصول الأمر الكوني) هو الذي تقتضيه مرتبة الرعاية، فمن عرف العبودية وهي خلاصة معاني الشرع المنقول رعاها حقّ رعايتها.

الأصل في الدنيا دار ابتلاء لا دار جزاء، والأصل في الآخرة دار جزاء لا دار ابتلاء

قال الله تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك: 2].

وقال الله عز وجل: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف: 7].

هذا في شأن الدنيا.

وأما شأن الآخرة؛ فقد قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [آل عمران:185].

وهذا أمر متقرّر عند أهل الإسلام لا يجادل في ذلك أحد.

ولكن قد يجيء الأمر على خلاف الأصل، فيكون في الدنيا جزاء وفي الآخرة ابتلاء، ولكنه شيء قليل لا يقدح في الأصل في كون الدنيا دار ابتلاء والآخرة دار جزاء.

عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إذا تبايعتم بالعينة

وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه شيء حتى ترجعوا إلى دينكم]. أخرجه أبو داود (3462)، وصححه العلامة الألباني في صحيح أبي داود.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (الدنيا ليست دار الجزاء التام، وإنما فيها من الجزاء ما تحصل به الحكمة والمصلحة) "النبوات"(1 /210).

وأمثلته كما قال الإمام ابن قيم الجوزية: (وقد جعل الله سبحانه أعمال البر والفاجر مقتضيات لآثارها في هذا العالم اقتضاء لا بد منه، فجعل منع الإحسان والزكاة والصدقة: سبباً لمنع الغيث من السماء والقحط والجدب، وجعل ظلم المساكين والبخس في المكاييل والموازين، وتعدي القوي على الضعيف: سبباً لجور الملوك والولاة الذين لا يرحمون إن استُرحِموا، ولا يعطفون إن استُعطفوا، وهم في الحقيقة أعمال الرعايا ظهرت في صور ولاتهم، فإن الله سبحانه بحكمته وعدله يظهر للناس أعمالهم في قوالب وصور تناسبها، فتارة بقحط وجدب، وتارة بعدو، وتارة بولاة جائرين، وتارة بأمراض عامة، وتارة بهموم والآم وغموم تحضرها نفوسهم، لا ينفكون عنها، وتارة بمنع بركات السماء والأرض عنهم، وتارة بتسليط الشياطين عليهم تؤزهم إلى أسباب العذاب أزاً، لتحق عليهم الكلمة، وليصير كل منهم إلى ما خلق له، والعاقل يسّير بصيرته بين الأقطار العالم فيشاهده، وينظر مواقع عدل الله وحكمته) زاد المعاد (4 /363).

هذا في الدنيا.

وأما في الآخرة؛ فقال شيخ الإسلام ابن تيمية مبينا بعض أمثلة الامتحان يوم القيامة وأن ذلك في العرصات قبل دخول الجنة والنار: (والتكليف إنما ينقطع بدخول دار الجزاء وهي الجنة والنار ، وأما عَرَصات القيامة فيمتحنون فيها كما يمتحنون في البرزخ، فَيُقَالُ لِأَحَدِهِمْ: مَنْ رَبُّك؟ وَمَا دِينُك؟ وَمَنْ نَبِيُّك؟ ، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ الْآيَةَ، وقد ثبت في الصحاح من غير وجه حديث تجلي الله لعباده في الموقف إذا قيل: (لِيَتَّبِعْ كُلُّ قَوْمٍ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ؛ فَيَتَّبِعُ الْمُشْرِكُونَ آلِهَتَهُمْ وَيَبْقَى الْمُؤْمِنُونَ فَيَتَجَلَّى لَهُمْ الرَّبُّ فِي غَيْرِ الصُّورَةِ الَّتِي يَعْرِفُونَ فَيُنْكِرُونَهُ ثُمَّ يَتَجَلَّى لَهُمْ فِي الصُّورَةِ الَّتِي يَعْرِفُونَهَا فَيَسْجُدُ لَهُ الْمُؤْمِنُونَ وَتَبْقَى ظُهُورُ الْمُنَافِقِينَ كَقُرُونِ الْبَقَرِ يُرِيدُونَ السُّجُودَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ، وذكر قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ الْآيَةَ).مجموع الفتاوى (4 / 303 - 304).

وقال الإمام ابن قيم الجوزية مبينا أن حديث **[أربعة يمتحنون يوم القيامة]** لا يعارض

كون الآخرة دار جزاء لا دار ابتلاء: (فإن قيل: هذه الأحاديث -مع ضعفها- مخالفة لكتاب الله، ولقواعد الشريعة، فإن الآخرة ليست دار تكليف، وإنما هي دار جزاء، ودار التكليف هي دار الدنيا، فلو كانت الآخرة دار تكليف لكان ثم دار جزاء غيرها.

قال أبو عمر في "الاستذكار": وقد ذكر بعض هذه الأحاديث: وهذه الأحاديث كلها ليست بالقوية، ولا تقوم بها حجة، وأهل العلم ينكرون أحاديث هذا الباب؛ لأن الآخرة دار جزاء ، وليست دار عمل ، ولا ابتلاء ، وكيف يكلفون دخول النار ، وليس ذلك في وسع المخلوقين ، والله لا يكلف نفسا إلا وسعها ؟ ولا يخلو من مات في الفترة من أن يكون مات كافرا ، أو غير كافر ، فإن مات كافرا جاحدا فإن الله حرم الجنة على الكافرين فكيف يمتحنون ؟ وإن كان معذورا بأنه لم يأته نذير ولا رسول ، فكيف يؤمر أن يقتحم النار وهي أشد العذاب ؟ والطفل ومن لا يعقل أحرى بألا يمتحن بذلك .

فالجواب من وجوه :

أحدها : أن أحاديث هذا الباب قد تضافرت ، وكثرت بحيث يشد بعضها بعضا ، وقد صحح الحفاظ بعضها كما صحح البيهقي وعبد الحق وغيرهما حديث الأسود بن سريع...).

ثم قال ابن القيم بعد ذكره عددا من الوجوه في الجواب عن كلام الإمام ابن عبدالبر القرطبي: (... الوجه الثاني عشر: أن أمرهم بدخول النار ليس عقوبة لهم، وكيف يعاقبهم على غير ذنب؟ وإنما هو امتحان، واختبار لهم: هل يطيعونه أو يعصونه؟ فلو أطاعوه، ودخلوها لم تضرهم، وكانت عليهم بردا وسلاما، فلما عصوه، وامتنعوا من دخولها استوجبوا عقوبة مخالفة أمره...). أحكام أهل الذمة (2 / 263 وما بعدها).

فإذا علمت أن الدنيا دار ابتلاء لا دار جزاء حملك هذا على الاستعداد لما يأتي فيها من منغصّات وهي دار المنغصّات بسلاح العبودية.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي: (المؤمنون في دار الدنيا في سفر جهاد؛ يجاهدون فيه النفوس والهوى، فإذا انقضى سفر الجهاد؛ عادوا إلى وطنهم الأول الذي كانوا فيه في صلب أبيهم. تكفل الله للمجاهد في سبيله أن يردّه إلى وطنه بما نال من أجر أو غنيمة). لطائف المعارف (ص/ 144).

وقال الأول:

قد هيّئوك لأمر لو فطنت له ... فاربأ بنفسك أن ترعى مع العمل!

أنواع الابتلاء والجزاء في الدنيا

سبق أن عرفت أن الدنيا دار ابتلاء، وقد يكون فيها شيء من الجزاء، والابتلاء والجزاء يكونان بالخير وبالشر، قال الله تعالى: ﴿ونبلوكم بالشرّ والخير فتنة وإلينا ترجعون﴾، وعليه تكون القسمة على ستة:

1- ابتلاء بالخير من غير شيء سابق: كأولاد الملوك يكونون خلفاءهم.

2- ابتلاء بالشرّ من غير شيء سابق: كمن ولد مجنونا أو ذا عاهة.

3- جزاء بالخير على خير سابق: مثل من أطاع والديه فجازاه الله بأبناء بررة.

وفي الباب حديث: [بَرُّوا آباءكم، تبرُّكم أبناؤكم]، لكنه لا يثبت، ضعفه العلامة الألباني في السلسلة الضعيفة (رقم 2043)، لكن معناه صحيح، ويعضده الحديث الآتي بقياس العكس.

4- جزاء بالشرّ على شرّ سابق: مثل من عصى والديه فعاقبه الله بأبناء عققة.

ودليل المثال السابق: حديث [ما من ذنبٍ أجدرُ أن يعجِّل اللهُ تعالى لصاحبه العقوبةَ في الدنيا، مع ما يدِّخر له في الآخرةِ مثل البغيِ وقطيعةِ الرحِمِ] رواه أبو داود (4902) وصححه العلامة الألباني في صحيح أبي داود.

5- ابتلاء بالشر على خير سابق: مثل حديث [أشدّ الناس بلاء الأنبياء...]. رواه الإمام أحمد وغيره، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (رقم 143)، والأنبيا عليهم السلام هم أهل الخير المعصومون من فعل الشر ابتلوا بالتكذيب والمعاداة.

6- ابتلاء بالخير على شرّ سابق: مثل حديث [إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنْ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾]. رواه أحمد في المسند، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (رقم ٤١٣).

وهناك أربعة أنواع أخرى لا تقع لا في الدنيا ولا في الآخرة، وهما:

7- جزاء بالشر على خير سابق.

8- جزاء بالخير على شرّ سابق.

وهذان ممتنعان شرعا، لمخالفتها لعدل الله سبحانه وحكمته.

9- جزاء بالشرّ من غير شيء سابق.

10- جزاء بالخير من غير شي سابق.

وهذان ممتنعان عقلا.

والأنواع الستة التي سبق ذكرها كلها تقع في الدنيا بحكمة بالغة لا شرّ فيها بوجه من الوجوه، وقد يجمع الله سبحانه بعضها للشخص في شيء واحد أو في أشياء متعددة، كمن جوزي بشرّ فعله بشرّ أعظم منه، فيكون ما زاد على ما اقترفه ابتلاء له، ولله الحكمة البالغة.

لا تلازم بين النعيم الدنيوي وفعل الخير، وبين البلاء الدنيوي وفعل الشرّ

عرفت مما سبق أن أنواع ما يحصل في الدنيا من ابتلاء وجزاء ستة أنواع، أربعة منها ابتلاء، واثنان منها جزاء، **فهل نوعا الجزاء هما ابتلاء أيضا؟**

الجواب: نعم، هما وإن كان فيهما شيء من الجزاء المعجّل في الدنيا لصاحبه، فهما أيضا ابتلاء، فعاد الأمر كلّه أن **(الدنيا دار ابتلاء).**

قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[الأنبياء: 35].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (ليس كل إنعام كرامة، ولا كل امتحان عقوبة). مجموع الرسائل (1/ 36).

وقال أيضا: (الدنيا ليست دار الجزاء التام، وإنّما فيها من الجزاء ما تحصل به الحكمة والمصلحة) النبوات (1/ 210).

وقال أيضا: (الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا لَا تَدُلُّ عَلَى كِبَرِ الذَّنْبِ وَصِغَرِهِ؛ فَإِنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ دَارَ الْجَزَاءِ وَإِنَّمَا دَارُ الْجَزَاءِ هِيَ الْآخِرَةُ) مجموع الفتاوى (20/ 101).

فالمسلم الذي برّ والديه في صغره فجوزي في آخر عمره بأبناء بررة هو أيضا مبتلى بهاته النعمة ليشكر رب العالمين على ما أنعم عليه ولا يكفر نعمته.

ومثله المسلم العاق الذي جوزي بأبناء عققة ما عوقب إلا لحكمة ربانية، وهاته العقوبة

هي في الحقيقة نعيم لأنها تحضه على التوبة والاستغفار، فعليه أن يشكر رب العالمين لما يترتب عليها، وعليه أيضا أن يصبر على الابتلاء بعقوق أبنائه له حتى وإن كان عاقا في صغره.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وَاَللَّهُ تَعَالَى يَبْتَلِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ بِمَا يَتُوبُ مِنْهُ؛ لِيَحْصُلَ لَهُ بِذَلِكَ مِنْ تَكْمِيلِ الْعُبُودِيَّةِ وَالتَّضَرُّعِ وَالْخُشُوعِ لِلَّهِ وَالْإِنَابَةِ إلَيْهِ وَكَمَالِ الْحَذَرِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ وَالِاجْتِهَادِ فِي الْعِبَادَةِ مَا لَمْ يَحْصُلْ بِدُونِ التَّوْبَةِ كَمَنْ ذَاقَ الْجُوعَ وَالْعَطَشَ وَالْمَرَضَ وَالْفَقْرَ وَالْخَوْفَ ثُمَّ ذَاقَ الشِّبَعَ وَالرِّيَّ وَالْعَافِيَةَ وَالْغِنَى وَالْأَمْنَ فَإِنَّهُ يَحْصُلُ لَهُ مِنْ الْمَحَبَّةِ لِذَلِكَ وَحَلَاوَتِهِ وَلَذَّتِهِ وَالرَّغْبَةِ فِيهِ وَشُكْرِ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَالْحَذَرِ أَنْ يَقَعَ فِيمَا حَصَلَ أَوَّلًا مَا لَمْ يَحْصُلْ بِدُونِ ذَلِكَ) مجموع الفتاوى (15/ 55).

فالإنسان في هذه الدنيا يدور بين نعمة ونقمة، وكلاهما ابتلاء فيه الخير له لو عقل وعرف مراد ربّه منه، قال النبي ﷺ: [عَجَبًا لأَمْرِ المُؤْمِنِ، إنَّ أمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وليسَ ذاكَ لأَحَدٍ إلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إنْ أصابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكانَ خَيْرًا له، وإنْ أصابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكانَ خَيْرًا له]. رواه مسلم (رقم 2999).

قال الإمام ابن قيم الجوزية في كلام عجيب مبيّنا أن الصبر والشكر كلّ واحد منهما يستلزم الآخر، وأن كليهما عبودية: (العبد لا يخلو قطُّ من أن يكون في نعمة أو بليّة. فإن كان في نعمة ففرضُها الشكر والصبر. أمَّا الشكر فهو قيدها وثباتها والكفيلُ بمزيدها. وأمَّا الصبر فعن مباشرة الأسباب التي تسلُبها، وعلى القيام بالأسباب التي تحفظُها؛ فهو أحوجُ إلى الصبرِ فيها من حاجة المبتلى.

ومن هنا يعلم سرّ مسألة الغنيّ الشاكر والفقير الصابر وأنَّ كلًّامنهما محتاج إلى الشكر والصبر، وأنَّه قد يكون صبرُ الغنيّ أكملَ من صبر الفقير، كما قد يكون شكر الفقير أكمل من شكر الغنيّ. فليس التفضيل بينهما بالغنى ولا بالفقر، وإنَّما هو بالأعمال. فأفضلهما أعظمُهما شكرًا وصبرًا، فإن فضل أحدُهما في ذلك فضل صاحبُه. فالشكر مستلزم للصبر لا يتمّ إلا به. والصبر مستلزم للشكر لا يتمّ إلا به. فمتى ذهب الشكر ذهب الصبر، ومتى ذهب الصبر ذهب الشكر.

وإن كان في بليّة ففرضها الصبر والشكر أيضًا. أمَّا الصبر فظاهر، وأمَّا الشكر فللقيام بحقّ الله عليه في تلك البليّة. فإنَّ لله على العبد عبوديّةً في البلاء، كما له عليه عبوديةٌ في النعماءِ، وعليه أن يقوم بعبوديته في هذا وهذا). طريق الهجرتين وباب السعادتين (2/ 576-577).

الابتلاء في الدنيا يكون بالأمر الشرعي كما يكون بالأمر القدري

ما سبق هو في الابتلاء بما يقع من الأمور الكونية، فهل الأوامر الشرعية هي ابتلاء أيضا؟

قال الإمام ابن قيم الجوزية: (فمن رحمته سبحانه بعباده: ابتلاؤهم بالأوامر والنواهي رحمةً وحِمْيةً، لا حاجةً منه إليهم بما أمرهم به، فهو الغني الحميد، ولا بُخلًا منه عليهم بما نهاهم عنه، فهو الجواد الكريم.

ومن رحمته: أن نَغّص عليهم الدنيا وكدَّرها، لئلّا يسكنوا إليها، ولا يطمئنوا إليها، ويرغبوا في النّعيم المُقيم في داره وجواره، فساقهم إلى ذلك بسياط الابتلاء والامتحان، فمنَعهم ليُعطيَهُمْ، وابتلاهُم ليُعافيَهُمْ، وأماتهم ليُحْيِيَهُمْ) إغاثة اللهفان (2/ 916-917).

فالابتلاء لا ينفكّ واقعا في الدنيا، فهو قرين العبودية، فكما أن الإنسان لا ينفكّ عن العبودية في الدنيا مطالبا بالقيام بها لله رب العالمين، فكذلك لا ينفكّ عن الابتلاء؛ لأنه لا يوجد في الدنيا خير أو شرّ فيه جزاء تامّ وخالص مثل الذي يوجد في الآخرة.

فالابتلاء بالأمر الكوني يتطلب الصبر أو الشكر، وكلاهما عبادة، والابتلاء بالأمر الشرعي يتطلب الأداء وهو الغاية منه، وهو أيضا عبادة.

قال الإمام ابن قيم الجوزية متحدثا عن حقيقة العبودية لله رب العالمين وأنها الغاية التي خلق الخليقة من أجلها ولا يمكن أن تنفكّ عنها: (فمَن أنكر حقيقة الإلهيّة ولم يعرفها، كيف يستقيم له معرفةُ حكمة العبادات وغاياتها ومقاصدها وما شُرعت لأجله؟ وكيف يستقيم له العلمُ بأنّها هي الغاية المقصودة بالخلق، فلها خُلِقوا، ولها أُرسلت الرُّسل، وأُنزلت الكتب، ولأجلها خُلِقت الجنّة والنار؛ وأنّ فرضَ تعطيل الخليقة عنها نسبةُ الله إلى ما لا يليق به، ويتعالى عنه مَن خلق السّماوات والأرض بالحقِّ، ولم يخلقهما باطلًا، ولم يخلق الإنسان عبثًا ولم يتركه سدًى مهملًا. قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥] أي لغير شيءٍ ولا حكمةٍ، ولا لعبادتكم لي ومجازاتي لكم. وقد صرَّح تعالى بهذا في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. فالعبادة هي الغايةُ التي خلق لها الجنّ والإنس والخلائق كلّها.

وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]. أي مهملًا. قال الشّافعيُّ -رضي الله عنه-: لا يؤمر ولا يُنْهى. وقال غيرُه: لا يثاب ولا يعاقب. والصحيح الأمران، فإنّ الثّوابَ والعقابَ مترتِّبٌ على الأمر والنهي، والأمرُ والنهيُ هو طلبُ العبادة

وإرادتُها، وحقيقةُ العبادة امتثالُهما.

وقال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾ [آل عمران: ١٩١]. وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥]. ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الجاثية: ٢٢]. فأخبر أنّه خلق السّماوات والأرض بالحقِّ المتضمِّن أمره ونهيه، وثوابه وعقابه.

فإذا كانت السّماوات والأرض وما بينهما خُلِقت لهذا، وهو غاية الخلق، فكيف يقال: إنّه لا علّة له، ولا حكمةٌ مقصودةٌ هي غايته، أو إنّ ذلك لمجرَّد استئجار العُمَّال حتّى لا يتكدَّر عليهم الثّوابُ بالمنّة، أو لمجرَّد استعداد النُّفوس للمعارف العقليّة وارتياضها لمخالفة العوائد!

فليتأمَّل اللّبيبُ الفرقانَ بين هذه الأقوال وبين ما دلَّ عليه صريحُ الوحي يجِدْ أصحابَ هذه الأقوال ما قدرَوا الله حقَّ قدره، ولا عرفوه حقَّ معرفته. فالله تعالى إنّما خلَق الخَلْقَ لعبادته الجامعة لكمال محبّته مع الخضوع له والانقياد لأمره) مدارج السالكين (1/ 149-151).

وقال الإمام ابن القيم أيضا: (فصل: في لزوم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لكلِّ عبد إلى الموت: قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]. وقال أهل النّار: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦)﴾ [المدثر: ٤٦ - ٤٧]. واليقين هاهنا: الموت، بإجماع أهل التّفسير. وفي "الصحيح" في قصّة عثمان بن مظعونٍ - رضي الله عنه - أنّ النّبيَّ ﷺ قال: "أمّا عثمان فقد جاءه اليقين من ربِّه" أي الموتُ وما فيه.

فلا ينفكُّ العبد من العبوديّة ما دام في دار التّكليف. بل عليه في البرزخ عبوديّةٌ أخرى لمَّا يسأله المَلَكانِ: من كان يعبد؟ وما يقول في رسول الله ﷺ؟ ويلتمسان منه الجواب. وعليه عبوديّةٌ أخرى يوم القيامة، يوم يدعو الله الخلقَ كلَّهم إلى السُّجود، فيسجد المؤمنون، ويبقى الكفّار والمنافقون لا يستطيعون السُّجود. فإذا دخلوا دارَ الثّواب والعقاب انقطع التّكليفُ هناك، وصارت عبوديّةُ أهل الثَّواب تسبيحًا مقرونًا بأنفاسهم، لا يجدون له تعبًا ولا نصبًا.

ومن ظنَّ أنّه يصل إلى مقامٍ يُسقِط عنه التّعبُّدَ، فهو زنديقٌ كافرٌ بالله ورسوله، وإنّما وصل إلى مقام الكفر بالله تعالى والانسلاخ من دينه. وكلَّما تمكَّن العبدُ في منازل العبوديّة كانت عبوديّتُه أعظم، والواجبُ عليه منها أكثر من الواجب على من دونه. ولهذا

كان الواجبُ على رسول الله ﷺ بل على الرُّسل أعظمَ من الواجب على أممهم، والواجبُ على أولي العلم أعظمَ من الواجب على من دونهم، وكلٌّ أحدٍ بحسب مرتبته). مدارج السالكين (1/ 159-160).

فحصل مما سبق من الكلام أن تعلم: **أن الابتلاء نوعان:**

1- مراد لذاته، وهو الابتلاء الشرعي، وهو أداؤه، وأداؤه هو العبودية.

2- مراد لغيره، وهو الابتلاء الكوني، ويقابل بالشكر أو الصبر، وهما من العبودية.

فمدار ما في الدنيا على العبودية.

ولا تتمّ العبودية إلا بالصبر والشكر.

قال الإمام ابن قيم الجوزية: (الإيمان نصفان: نصفٌ شكر، ونصفٌ صبر) مدارج السالكين (1/ 210 و 2/ 586 و 3/ 238).

وإذا كان الابتلاء نوعان (ابتلاء كوني، وابتلاء شرعي)، فكلّ واحد منهما يلزمه الصبر والشكر.

والصبر والشكر على الابتلاء الكوني سبق الكلام عليه.

وأما الابتلاء الشرعي وهو القيام بالعبودية فيلزمه الصبر والشكر.

فأنواع العبادات كلها من أعمال القلوب والجوارح يلزمها الصبر لأدائها، ويلزمها الشكر بعد أدائها.

فالرضا بقضاء الله وقدره من أعمال القلوب، يلزمك الصبر للقيام به، ويلزمك الشكر لله لأنه وفقك للقيام به.

والصلاة من أعمال الجوارح التي تجمع بين عمل اللسان وعمل الجوارح يلزمك الصبر لأدائها بها، ويلزمك الشكر لله لأنه وفقك لأدائها.

فأداء العبادة الذي يلزمه الصبر هو (القيام بالأمر الشرعي)، وحصول العبادة الذي يلزمه الشكر هو (حصول الأمر الكوني).

النعمة الحقيقية المطلقة في الدنيا هي العبودية وهي أن يوفقك الله عز وجلّ لأداء الأمر الشرعي

قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

وقال تعالى: ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى﴾.

فالإنسان خلق لغاية عظيمة، وهي عبادة ربّه وخالقه، ولم يخلق عبثا ليلعب أو يلهو، وهاتان الآيان فيهما أعظم الردّ على دعاة التحرر من أذناب الغرب الكافر، ومن تشبه بهم ممن يرفع راية نصرة الإسلام زورا، الذين همّهم وشغلهم (الحرية، ودعني أفعل ما أشاء)! بل، ربما زعم بعضهم أن حريته المزعومة هذه هي ما جاء به الإسلام!

قال الإمام ابن قيم الجوزية: (فإنّ الله سبحانه إنّما خلق الخلقَ لعبادته الجامعة لمحبَّتِه والخضوعِ له وطاعتِه، وهذا هو الحقُّ الذي خُلِقت به السّماوات والأرض، وهو غاية الخلق والأمر. ونفيُه كما يقول أعداؤه هو الباطلُ والعبَثُ الذي نزَّه نفسَه عنه، وهو السُّدى الذي نزَّه نفسَه عن أن يترك الإنسانَ عليه. فهو سبحانه يحبُّ أن يُعبَد ويُطاعَ، ولا يعبأ بخلقه شيئًا لولا محبّتهم وطاعتهم له. وقد أنكر على من زعم أنّه خلقهم لغير ذلك. وإنّهم لو خُلِقوا لغير عبادته وتوحيده وطاعته لكان خلقُهم عبثًا وباطلًا وسدًى، وذلك ما يتعالى عنه أحكمُ الحاكمين والإله الحقُّ.

فإذا خرج العبدُ عمّا خُلِق له من طاعته وعبوديَّته، فقد خرج عن أحبِّ الأشياء إليه، وعن الغاية التي لأجلها خُلِقت الخليقة، وصار كأنّه خُلِقَ عبثًا لغير شيءٍ، إذ لم تُخرج أرضُه البذرَ الذي وُضِع فيها، بل قلبَتْه شوكًا ودَغَلًا. فإذا راجعَ ما خُلِق له ووُجِد لأجله فقد رجع إلى الغاية التي هي أحبُّ الأشياء إلى خالقه وفاطره، ورجع إلى مقتضى الحكمة التي خُلِق لأجلها، وخرَج عن معنى العبث والسُّدى والباطل. فاشتدَّت محبَّةُ الرَّبِّ له فإنَّ اللهَ يحبُّ التَّوَّابين، فأوجبت هذه المحبّةُ فرحًا كأعظم ما يقدَّر من الفرح). مدارج السالكين (1/ 335-336).

ولما كانت العبودية هي الغاية التي خلق الإنسان من أجلها، كان أداؤها والاتصاف بها هو أكمل الأوصاف وأحسن الخلال.

قال الإمام ابن قيم الجوزية: (والله جعل العبوديّةَ وصفَ أكملِ خلقه وأقرَبِهم إليه، فقال: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢]. وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٦)﴾ [الأعراف: ٢٠٦]...

ووصف أكرمَ خلقه عليه وأعلاهم عنده منزلةً بالعبوديّة في أشرف مقاماته، فقال: ﴿وَإِنْ

كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، وقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ﴾ [الكهف: ١]، فذكره بالعبوديّة في مقام إنزال الكتاب عليه والتَّحدّي بأن يأتوا بمثله. وقال: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]، فذكره بالعبوديّة في مقام الدّعوة إليه. وقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، فذكره بالعبوديّة في مقام الإسراء.

وفي "الصّحيح" عنه ﷺ أنّه قال: "لا تُطْرُوني كما أَطْرَتِ النّصارى المسيحَ ابنَ مريم، فإنّما أنا عبدٌ، فقولوا: عبد الله ورسوله".

وفي الحديث الآخر: "إنَّما أنا عبدٌ، آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد".

وفي "صحيح البخاري"عن عبد الله بن عمرٍو قال: قرأت في التوراة صفة محمَّدٍ ﷺ: محمَّدٌ رسول الله، عبدي ورسولي، سمَّيته المتوكِّل، ليس بفظٍّ ولا غليظٍ، ولا صخّابٍ بالأسواق، ولا يجزي بالسّيِّئة السّيِّئة، ولكن يعفو ويغفر.

وجعل سبحانه البشارة المطلقة لعباده، فقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٧]. وجعل الأمن المطلق لهم، فقال تعالى: ﴿يَا عِبَادِي لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٦٨ - ٦٩].

وعزَل الشّيطانَ عن سلطانه عليهم خاصّةً، وجعل سلطانه على من تولّاه وأشرك به، فقال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]، وقال: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ به مشركون} [النحل: ٩٩ - ١٠٠].

وجعل النّبيُّ ﷺ إحسانَ العبوديّة أعلى مراتب الدِّين، وهو الإحسان، فقال في حديث جبريل عليه السلام وقد سأله عن الإحسان: "أن تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك") مدارج السالكين (1/ 155-158).

الفرحة والسعادة بالنعمة

إذا كانت العبودية وهي القيام بالأمر الشرعي هي النعمة الحقيقية المطلقة في هذه الدنيا، فالفرح بها هو الفرح الحقيقي المطلق، وما سواها من النعم نعم مقيدة، فلا يفرح بها فرحا

مطلقا، وإنما يفرح بها فرحا مقيدا.

والنعم هنا هي النعم المشروعة أو التي جاءت بطريق مشروع، وأما الفرح بالشيء غير المشروع أو الذي جاء بطريق غير مشروعة، فهو فرح غير مشروع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (اللذّة والفرحة والسرور وطيب الوقت والنعيم الذي يمكن التعبير عنه، إنما هو في معرفة الله سبحانه وتعالى وتوحيده والإيمان به، وانفتاح الحقائق الإيمانية والمعارف القرآنية). مجموع الفتاوى (28/ 21).

وقال أيضا: (ليس للقلوب سرور ولا لذة تامة إلا في محبة الله والتقرب إليه بما يحبّه، ولا تمكن محبّته إلا بالإعراض عن كل محبوب سواه، وهذا حقيقة لا إله إلا الله، وهي ملة إبراهيم الخليل وسائر الأنبياء والمرسلين عليهم السلام). مجموع الفتاوى (28/ 22).

وقال الإمام ابن قيم الجوزية: (وكذلك العبد لا فَرَحَ له أعظمُ من فرحِه بوجود ربه، وأنسِه به، وطاعته له، وإقباله عليه، وطمأنينتِه بذكره، وعمارة قلبه بمعرفته، والشوقِ إلى لقائه. فليس في الكائنات ما يسكن العبدُ إليه، ويطمئن به، ويتنعم بالتوجه إليه إلا اللَّه سبحانه. ومن عبد غيرَه وأحبَّه -وإن حصل له نوع من اللَّذة والمودَّة والسكون إليه والفرَح والسرور بوجوده- ففسادُه به ومضرتُه وعطَبُه أعظمُ من فساد أكل الطعام المسموم اللذيذ الشهي الذي هو عذبٌ في مبدئه، وعذابٌ في نهايته، كما قال القائل:

مآربُ كانت في الشباب لأهلها ... عِذابًا، فصارت في المشيب عَذَابا).

طريق الهجرتين (1/ 119).

والفرح بالنعمة المطلقة في هذه الدنيا وهي العبودية يكون من وجهين:

1- فرحته بسببها: وهو خالقه سبحانه ووحيه العظيم ورسوله الكريم.

2- فرحته بأدائها: وهو الغاية من إنزالها، وهو الغاية من خلقه في هذه الدنيا.

ودليل هذين النوعين: قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ الله وبِرَحْمَتِه﴾، قال أبو سعيد الخدري وابن عباس: «فضلُ اللهِ: القرآنُ، ورحمتُه: أن جعَلكم مِن أهلِه»، وروي مرفوعا، وهناك أقوال غيرها. ينظر تفسير القرطبي (8/ 353) وغيره.

وقد جمع الإمام ابن قيم الجوزية بين ما ورد في تفسير الآية بقوله: (وقد دارت أقوال

السلف على أن فضل الله ورحمته: الإسلام والسنة، وعلى حسب حياة القلب يكون فرحه بهما، وكلما كان أرسخ فيهما كان قلبه أشد فرحًا، حتى إن القلب ليرقص فرحًا ـ إذا باشر روح السنة ـ أحزن ما يكون الناس، وهو ممتلئ أمنًا أخوف ما يكون الناس.

فإن السنة حصن الله الحصين، الذي من دخله كان من الآمنين، وبابه الأعظم الذي من دخله كان إليه من الواصلين، تقوم بأهلها وإن قعدت بهم أعمالهم، ويسعى نورها بين أيديهم إذا طفئت لأهل البدع والنفاق أنوارهم، وأهل السنة هم المبيضَّة وجوههم إذا اسودَّت وجوه أهل البدعة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ... ﴾ الآية [آل عمران: ١٠٦]، قال ابن عباس: تبيضُّ وجوه أهل السنة والائتلاف، وتسودُّ وجوه أهل البدعة والتفرق.

وهي الحياة والنور اللذان بهما سعادة العبد وهداه وفوزه، قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]. فصاحب السنة حي القلب مستنيره، وصاحب البدعة ميت القلب مظلمه.

وقد ذكر الله سبحانه هذين الأصلين في كتابه في غير موضع، وجعلهما صفة أهل الإيمان، وجعل ضدهما صفة من خرج عن الإيمان، فإن القلب الحي المستنير هو الذي عقل عن الله، وفهم عنه، وأذعن، وانقاد لتوحيده ومتابعة ما بعث به رسوله ﷺ. والقلب الميت المظلم: الذي لم يعقل عن الله ولا انقاد لما بُعث به رسوله ﷺ، ولهذا يصف سبحانه هذا الضرب من الناس بأنهم أموات غير أحياء، وبأنهم في الظلمات لا يخرجون منها، ولهذا كانت الظلمة مستولية عليهم من جميع جهاتهم، فقلوبهم مظلمة ترى الحق في صورة الباطل، والباطل في صورة الحق، وأعمالهم مظلمة، وأقوالهم مظلمة، وأحوالهم كلها مظلمة، وقبورهم ممتلئة عليهم ظلمة). اجتماع الجيوش الإسلامية (ص 10-12).

فيا حسرة ويا حزن من جهل أن غايته ومهمته في هذه الدنيا هي العبودية والاستجابة لأوامر رب العالمين!

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (العبد كلما كان أذلّ لله وأعظم افتقارا إليه وخضوعا له، كان أقرب إليه، وأعزّ له، وأعظم لقدره؛ فأسعد الخلق أعظمهم عبودية لله). مجموع الفتاوى (1/ 33).

وكان ـأعلى الله درجته في جنّته- يقول: (من أراد السعادة الأبديَّة فليلزم عتبة العبوديَّة) مدارج السالكين لابن القيم (2/ 52).

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي: (إن الله تعالى خلق الخلق لأجل معرفته، وليأمرهم بعبادته، ولا سعادة لأحد في الدنيا والآخرة إلا بمعرفة الله - عز وجل- وعبادته وحده لا شريك له، ولذلك أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب). مجموع رسائله (2/ 555).

ويزيد يوم القيامة:

3- فرحته بجزائها: وهو دخول الجنة والنجاة من النار: وهذا هو ختام الفرحة وتمام السعادة على أكمل الوجوه، ولذلك سماها العلماء (بلاد الأفراح).

دخول الجنة والنجاة من النار هو الغاية من القيام بالعبودية، فهو غاية الغاية

قال الله تعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤)} [يونس: ٦٢ - ٦٤].

وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠)} [فصلت: ٣٠].

وقال تعالى: {تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (٦٣)} [مريم: ٦٣].

قال الإمام ابن قيم الجوزية: (لمَّا علم المُوَفَّقون ما خُلقوا له، وما أريدَ بإيجادهم، رفعوا رؤوسهم، فإذا عَلَم الجنة قد رُفِعَ لهم، فشَمَّروا إليه، وإذا صراطُها المستقيم قد وَضَحَ لهم، فاستقاموا عليه، ورأوا من أعظمِ الغَبْنِ بيعُ ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطرَ على قلب بشر، في أبدٍ لا يزول، ولا ينفذُ = بصُبَابَة عيشٍ، إنَّما هو كأضغاث أحلام، أو كطيفٍ زارَ في المنَام، مَشوبٍ بالنُّغَصِ، ممزوجٍ بالغُصَصِ، إنْ أضحك قليلًا أبكى كثيرًا، وإن سَرَّ يومًا أحزنَ شهورًا، آلامُهُ تزيدُ على لذَّاتِهِ، وأحزانه أضعافُ أضعاف مَسَرَّاتِهِ، أوله مخَاوف، وآخرُهُ مَتَالِف.

فيَا عَجبًا من سفيهٍ في صورة حكيم، ومعتوهٍ في مِسْلَاخ عاقلٍ، آثر الحظ الفاني الخسيس، على الحظِّ الباقي النفيس، وباع جنَّةً عرضها السموات والأرض؛ بسجنٍ ضيّقٍ بين أرباب العاهات، ومساكن طيّبةً في جنَّات عدن تجري من تحتها الأنهارَ، بأعْطَانٍ ضيقة آخرها الخرابُ والبوار) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (1/ 8-10).

ولذلك لما عرف العابدون أنها غاية الغاية اشتاقت نفوسها إليها بكلّ ما في الشوق من معنى، وهذا سيد العابدين نبينا الكريم يسأل الله في دعائه: [وأسألُكَ برْدَ العيشِ بعدَ

الموْتِ، وأسألُكَ لذَّةَ النظرِ إلى وجهِكَ، والشوْقَ إلى لقائِكَ في غيرِ ضراءَ مُضِرَّةٍ، ولا فتنةٍ مُضِلَّةٍ]. النسائي (1305)، وأحمد (18351) باختلاف يسير، وصححه الشيخ الألباني في تخريج "الكلم الطيب" (106).

قال ابن القيم: (الشّوق إلى الله لا يُنافي الشّوقَ إلى الجنّة، فإنّ أطيبَ ما في الجنّة قربُه ورؤيته وسماعُ كلامه ورضاه). مدارج السالكين (3/ 441).

وهذا أحد العابدين العارفين كان يكابد ما يكابد من شوقه إلى جنان ربه: (وحدّثني بعض أقارب شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- قال: كان في بداية أمره يخرج أحيانًا إلى الصّحراء يخلو عن النّاس، لقوّة ما يَرِد عليه. فتبعتُه يومًا، فلمّا أصْحَرَ تنفَّسَ الصُّعَداء، ثمّ جعل يتمثّل بقول الشّاعر:

وأخرجُ من بين البيوتِ لعلَّني ... أُحدِّث عنك النّفسَ بالسِّرِّ خاليًا).

مدارج السالكين لابن القيم (3/ 445).

ولما كانت الجنة دار الأفراح في الآخرة كان الطريق إليها وهو العبودية دار الأفراح في الدنيا، ولذلك أثر عن شيخ الإسلام ابن تيميّة -رحمه الله- أنه كان يقول: (إنَّ في الدُّنيا جنَّةً مَن لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة). مدارج السالكين (2/ 88).

إنها الدار التي أخرجنا منها، ونرجوا أن نعود إليها، اللهم بلّغنا.

وأنشد الإمام ابن القيم لنفسه في عدد من كتبه:

فحيَّ على جنَّاتِ عدنٍ فإنَّها ... منازلُك الأولى وفيها المُخيَّمُ

ولكنَّنا سَبْيُ العــدوِّ فهل ترى ... نَعودُ إلى أوطـــاننا ونسلمُ

منها: حادي الأرواح (1/ 14)، مفتاح دار السعادة (1/ 24)، إغاثة اللهفان (1/ 117)، مدارج السالكين (1/ 188)، طريق الهجرتين (1/ 108)، وغيرها.

تلخيص لمنازل السعادة السابقة

قال الإمام ابن قيم الجوزية: (فصل: والفرق بين فرح القلب وفرح النفس ظاهر، فإنَّ الفرح بالله ومعرفته ومحبته وكلامه من القلب. قال تعالى: {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ} [الرعد: ٣٦]. فإذا كان أهل الكتاب يفرحون بالوحي، فأولياء الله وأتباعُ رسوله أحقُّ بالفرح به.

وقال تعالى: {وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} [التوبة: ١٢٤].

وقال تعالى: {قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} [يونس: ٥٨].

قال أبو سعيد الخُدريُّ: فضلُ الله: القرآن. ورحمتُه: أن جعلكم من أهله.

وقال هلال بن يَسَاف: فضلُ الله ورحمته: الإسلامُ الذي هداكم إليه، والقرآنُ الذي علَّمكم، وهو خيرٌ من الذهب والفضة الذي تجمعون.

وقال ابن عباس والحسن وقتادة وجمهور المفسرين: فضل الله الإسلام. ورحمته القرآن.

فهذا فرحُ القلب، وهو من الإيمان ويثابُ عليه العبد، فإن فرحَه به يدل على رضاه به، بل هو فوق الرِّضا. فالفرحُ بذلك على قدر محبته، فإنَّ الفرح إنما يكون بالظفر بالمحبوب، وعلى قدر محبته يفرح بحصوله له. فالفرحُ بالله وأسمائه وصفاته ورسوله وسنَّته وكلامه: محضُ الإيمان وصَفوُه ولبُّه، وله عبودية عجيبة وأثر في القلب لا يعبَّر عنه.

فابتهاجُ القلب وسرورُه وفرحُه بالله وأسمائه وصفاته وكلامه ورسوله ولقائه أفضلُ ما يُعطاه، بل هو أجلُّ عطاياه. والفرحُ في الآخرة بالله ولقائه بحسَب الفرح به ومحبته في الدنيا. فالفرحُ بالوصول إلى المحبوب يكون على حَسَب قوة المحبة وضعفها. فهذا شأن فرح القلب.

وله فرحٌ آخر، وهو فرحُه بما منَّ الله به عليه من معاملته والإخلاص له والتوكُّل عليه والثقة به وخوفه ورجائه. وكلما تمكَّن في ذلك قوِيَ فرحُه وابتهاجُه.

وله فرحةٌ أخرى عظيمةُ الوقع عجيبةُ الشأن. وهي الفرحة التي تحصل له بالتوبة، فإنَّ لها فرحةً عجيبة لا نسبةَ لفرحةِ المعصية إليها البتة. فلو علم العاصي أنَّ لذةَ التوبة وفرحتَها تزيد على لذةِ المعصية وفرحتِها أضعافًا مضاعفةً لَبادرَ إليها أعظم من مبادرته إلى لذة المعصية.

وسرُّ هذا الفرح إنما يعلَمُه مَن عَلِمَ سرَّ فرح الربِّ تعالى بتوبة عبده أشدَّ فرح يقدَّر. ولقد ضرَب له رسول الله ﷺ مثلًا ليس في أنواع الفرح في الدنيا أعظم منه، وهو فرحُ رجلٍ قد خرج براحلته التي عليها طعامه وشرابه في سفر، ففقدها في أرض دَوِّيَّة مَهْلَكة، فاجتهد في طلبها فلم يجدها، فيئس منها، فجلس ينتظر الموت، حتى إذا طَلَع البدرُ رأى

في ضوئه راحلَته وقد تعلَّق زمامُها بشجرة، فقال من شدة فرحه: اللهم أنت عبدي وأنا ربُّك. أخطأ من شدَّة الفرح، فالله أفرَحُ بتوبة عبده من هذا براحلته.

فلا ينكَر أن يحصل للتائب نصيب وافرٌ من الفرح بالتوبة، ولكن هاهنا أمرٌ يجب التنبيه عليه، وهو أنه لا يصل إلى ذلك إلا بعد تَرحاتٍ ومضَضٍ ومِحَن لا تثبتُ لها الجبال، فإن صبَر لها ظَفِر بلذة الفرح، وإن ضعُف عن حملها ولم يصبر لها لم يظفر بشيء. وآخرُ أمره فواتُ ما آثره من فرحة المعصية ولذتها، فيفوته الأمران، ويحصلُ على ضدِّ اللذة من الألم المركَّب من وجود المؤذي وفوت المحبوب، فالحكم لله العلي الكبير.

فصل: وهاهنا فرحةٌ أعظمُ من هذا كلِّه. وهي فرحته عند مفارقته الدنيا إلى الله، إذا أرسَلَ إليه الملائكةَ، فبشَّروه بلقائه، وقال له ملك الموت: اخرجي أيتها الروح الطيبة كانت في الجسد الطيب، أبشِري برَوح وريحان وربٍّ غير غضبان، اخرجي راضية مرضيًّا عنك {يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي} [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠].

فلو لم يكن بين يدي التائب إلا هذه الفرحة وحدها لكان العقل يأمره بإيثارها، فكيف ومِن بعدها أنواعٌ من الفرح! منها صلاةُ الملائكة الذين بين السماء والأرض على روحِه.
ومنها فتحُ أبواب السماء لها، وصلاةُ ملائكة السماء عليها، وتشييعُ مقرَّبيها لها إلى السماء الثانية فتُفتَح لها، ويصلِّي عليها أهلُها، ويشيِّعُها مقرَّبوها هكذا إلى السماء السابعة. فكيف يقدَّر فرحُها وقد استؤذن لها على ربِّها ووليِّها وحبيبها، فوقفتْ بين يديه، وأذِنَ لها بالسجود فسجدَتْ، ثم سمعَتْه سبحانه يقول: اكتبوا كتابه في علِّيين. ثم يُذهب به، فيرى الجنةَ ومقعدَه فيها وما أعدَّ الله له، ويلقَى أصحابه وأهله فيستبشرون به ويفرحون به، ويفرح بهم فرحَ الغائب يقدَم على أهله، فيجدهم على أحسن حال، ويقدَم عليهم بخيرِ ما قدم به مسافر.

هذا كلُّه قبل الفرح الأكبر يومَ حشرِ الأجساد، بجلوسه في ظل العرش، وشُربِه من الحوض، وأخذِه كتابَه بيمينه، وثقَلِ ميزانه، وبياضِ وجهه، وإعطائه النورَ التامَّ، والناسُ في الظلمة؛ وقطعِه جسرَ جهنم بلا تعويق، وانتهائه إلى باب الجنَّة وقد أُزلفت له في الموقف، وتلقِّي خَزَنتها له بالترحيب والسلام والبشارة، وقدومه على منازله وقصوره وأزواجه وسراريِّه.

وبعد ذلك فرحٌ آخر لا يُقدَّر ولا يُعبَّر عنه، تتلاشى هذه الأفراح كلُّها عنده، وإنما يكون لأهل السنَّة المصَدِّقين برؤية وجه ربهم تبارك وتعالى من فوقهم، وسلامه عليهم،

وتكليمه إياهم ومحاضرته لهم:

وليست هذه الفرَحاتُ إلَّا ... لذي التَّرَحاتِ في دار الرزايا

فشمِّر ما استطعت الساقَ واجهَدْ ... لعلَّكَ أن تفوزَ بذي العطايا

وصُمْ عن لذَّة حُشِيَتْ بلاءً ... لِلذَّاتٍ خلَصْن من البلايا

ودَعْ أمـــــــــنيَّةً إن لم تَنَلْها ... تعذَّبْ أو تُنَلْ كانت منايا

ولا تَستَبْطِ وعدًا من رسولٍ ... أتى بالحقِّ من ربِّ البرايا

فهذا الوعدُ أدنى من نعيمٍ ... مضى بالأمس لو وُفِّقْتَ رَايا).

الروح (2/ 694-698).

شروط صحة العبادة

تعريف العبادة: قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (الْعِبَادَةُ: هِيَ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ: مِنْ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ فَالصَّلَاةُ وَالزَّكَاةُ وَالصِّيَامُ وَالْحَجُّ وَصِدْقُ الْحَدِيثِ وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ؛ وَبِرُّ الْوَالِدَيْنِ وَصِلَةُ الْأَرْحَامِ وَالْوَفَاءُ بِالْعُهُودِ وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ. وَالْجِهَادُ لِلْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْإِحْسَانُ إلَى الْجَارِ وَالْيَتِيمِ وَالْمِسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَالْمَمْلُوكِ مِنْ الْآدَمِيِّينَ وَالْبَهَائِمِ وَالدُّعَاءِ وَالذِّكْرِ وَالْقِرَاءَةِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِنْ الْعِبَادَةِ. وَكَذَلِكَ حُبُّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَخَشْيَةُ اللَّهِ وَالْإِنَابَةُ إلَيْهِ. وَإِخْلَاصُ الدِّينِ لَهُ وَالصَّبْرُ لِحُكْمِهِ وَالشُّكْرُ لِنِعَمِهِ وَالرِّضَا بِقَضَائِهِ؛ وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ؛ وَالرَّجَاءُ لِرَحْمَتِهِ وَالْخَوْفُ لِعَذَابِهِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ هِيَ مِنْ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ. وَذَلِكَ أَنَّ الْعِبَادَةَ لِلَّهِ هِيَ الْغَايَةُ الْمَحْبُوبَةُ لَهُ وَالْمَرْضِيَّةُ لَهُ الَّتِي خَلَقَ الْخَلْقَ لَهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾). مجموع الفتاوى (10/ 149-150).

لأداء العبادة (أداء الأمر الشرعي) بوجه صحيح شرطان: الإخلاص والمتابعة:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وجماع الدين أصلان أن لا نعبد إلا الله ولا نعبده إلا بما شرع لا نعبده بالبدع كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [سورة الكهف, الآية: ١١٠].

وذلك تحقيق الشهادتين شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمداً رسول الله.

- ففي الأولى: أن لا نعبد إلا إياه.

- وفي الثانية: أن محمداً هو رسوله المبلغ عنه, فعلينا أن نصدق خبره ونطيع أمره, وقد بين ﷺ لنا ما نعبد الله به ونهانا عن محدثات الأمور وأخبر أنها ضلالة قال تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [سورة البقرة: ١١٢]. رسالة العبودية (ص ١٢٧).

وقال الإمام ابن قيم الجوزية: (لا يكون العبد متحقّقًا بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إلّا بأصلين عظيمين: أحدهما: متابعة الرّسول. والثّاني: الإخلاص للمعبود. فهذا تحقيق ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾). مدارج السالكين (1/ 128).

أنواعها: قال الإمام ابن قيّم الجوزية: (ورحى العبوديّة تدور على خمس عشرة قاعدةً، من كمَّلَها كمَّلَ مراتبَ العبوديّة.

وبيانها: أنّ العبوديّة منقسمةٌ على القلب، واللِّسان، والجوارح. وعلى كلٍّ منها عبوديّةٌ تخُصُّه. والأحكام التي للعبوديّة خمسةٌ: واجبٌ، ومستحبٌّ، وحرامٌ، ومكروهٌ، ومباحٌ. وهي لكلِّ واحدٍ من القلب، واللِّسان، والجوارح.

فواجب القلب منه متّفَقٌ على وجوبه، ومختلَفٌ فيه...

وأمّا عبوديّات اللِّسان الخمس...

وأمّا العبوديّات الخمس على الجوارح، فعلى خمسة وعشرين مرتبةً أيضًا...) ثم فصّل رحمه الله في كل واحدة من هاته الثلاث، ينظر: مدارج السالكين (1/ 165 وما بعدها).

خطورة ابتغاء الدنيا بعمل الآخرة

قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (15) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. [يونس: 15-16].

وقال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾. [الإسراء: 18].

وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: 20].

قال : [بشّرْ هذهِ الأُمَّةَ بالتَّيسيرِ، والسَّناءِ والرِّفعةِ بالدِّينِ، والتَّمكينِ في البلادِ، والنَّصرِ، فمَن عمِلَ منهُم بعملِ الآخرةِ للدُّنيا، فليسَ لهُ في الآخرةِ مِن نصيبٍ]. رواه أحمد (21258) وغيره، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (1332).

وبوب الإمام المجدد محمد بن عبدالوهاب رحمه الله في كتابه "كتاب التوحيد الذي هو حقّ الله على العبيد": (باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا...)، ثم أورد تحته الأدلة، ينظر: (2/ 136 مع شرحه: القول المفيد لابن عثيمين).

وهاته الخصلة هي خصلة الأحبار والرهبان، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ [التوبة: 34].

قال الحافظ ابن كثير: (والحاصل: التحذير من التشبه بهم في أحوالهم وأقوالهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالبَاطِلِ﴾ وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين ومناصبهم ورياستهم في الناس، يأكلون أموالهم بذلك، كما كان لأحبار اليهود على أهل الجاهلية شرف، ولهم عندهم خرج وهدايا وضرائب تجيء إليهم، فلما بعث الله رسوله ﷺ استمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم ، طمعا منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات ، فأطفأها الله بنور النبوة ، وسلبهم إياها ، وعوضهم بالذلة والمسكنة ، وباءوا بغضب من الله) تفسير القرآن العظيم (4/ 138).

قلت: وللإخوان المفلسين من ذلك نصيب عظيم لسرقتهم تبرعات المسلمين باسم قضايا المسلمين.

وقال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: 83].

قال أبو معاوية: [الذي لا يريد علوا هو من لم يجزع من ذلها ، ولم ينافس في عزها ، وأرفعهم عند الله أشدهم تواضعا ، وأعزهم غدا ألزمهم لذل اليوم]. الجامع للقرطبي (13/ 230).

قلت: وغرض الإخوان المفلسين هو العلوّ في الأرض والسلطة، ويعزون سعيهم زورا من أجل نصرة الإسلام.

عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: [كيف أنتم إذا لبستكم فتنة؛ يهرم فيها الكبير،

ويربو فيها الصغير، ويتخذها الناس سنة، فإذا غيرت؛ قالوا: غيرت السنة. قيل: متى ذلك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: إذا كثرت قراؤكم، وقلّت فقهاؤكم، وكثرت أموالكم، وقلت أمناؤكم، والتمست الدنيا بعمل الآخرة، وتفقه لغير الدين]. رواه الدارمي وغيره، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (111).

وقال الفضيل بن عياض: [لأن آكل الدنيا بالطبل والمزمار أحب إلي من أن آكلها بديني] رواه البيهقي في شعب الإيمان (٥/٣٥٦).

قال الإمام ابن قيم الجوزية: (وأما الشرك في الإرادات والنيّات، فذلك البحر الذي لا ساحل له، وقلّ من ينجو منه. فمن أراد بعمله غيرَ وجه الله، أو نوى شيئًا غيرَ التقرّبِ إليه وطلبِ الجزاء منه، فقد أشرك في نيته وإرادته.

والإخلاص أن يخلص لله في أقواله وأفعاله وإراداته ونيته. وهذه هي الحنيفية ملة إبراهيم التي أمر الله بها عبادَه كلَّهم، ولا يقبل من أحدٍ غيرَها. وهي حقيقة الإسلام، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥)﴾ [آل عمران: ٨٥]، وهي ملّة إبراهيم التي من رغب عنها فهو من أسفه السفهاء) الداء والدواء (ص 312-313).

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي: (ومن أعظم خصال النفاق العملي أن يعمل الإنسان عملاً ويظهر أنه قصد به الخير، وإنما عمله ليتوصل به إلى غرض له سيء فيتم له ذلك، ويتوصل بهذه الخديعة إلى غرضه ويفرح بمكره وخداعه وحمد الناس له على ما أظهر وتوصل به إلى غرضه السيء الذي أبطنه، وهذا قد حكاه الله في القرآن عن المنافقين واليهود) جامع العلوم والحكم (ص 911).

روي أنه: (أتى رجل من الخوارج الحسن البصري فقال له: ما تقول في الخوارج؟ قال: هم أصحاب دنيا، قال: ومن أين قلت، وأحدهم يمشي في الرمح حتى ينكسر فيه ويخرج من أهله وولده؟ قال الحسن: حدثني عن السلطان أيمنعك من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والحج والعمرة؟ قال: لا، قال: فأراه إنما منعك الدنيا فقاتلته عليها). البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي (1/ 156).

ومن ذكاء الصحابة رضي الله عنهم في إدراكهم لخبث الخوارج أسلاف هؤلاء الحزبيين أنه: دخل بعض الخوارج المسجد على علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأخذوا يقولون: (لا حكم إلا لله!)، قال علي رضي الله عنه: [... تدرون ما يقول هؤلاء؟!

يقولون: لا إمارة، أيها الناس: إنه لا يصلحكم إلا أمير برٌّ أو فاجر...]. مصنف ابن أبي شيبة (7/ 562).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية عن الخوارج الأوائل: (هؤلاء الخوارج المارقون من أعظم ما ذمهم به النبي ﷺ أنهم يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان... والخوارج مع هذا لم يكونوا يعاونون الكفار على قتال المسلمين، والرافضة يعاونون الكفار على قتال المسلمين).مجموع الفتاوى (28/ 288).

وأما خوارج عصرنا فهم صناعة الكفار، ويدعمهم الكفار، وأفعالهم كلّها في خدمة الكفار!

قال العلامة المحدث الشهير أحمد بن محمد شاكر المصري: (حركة الشيخ حسن البنا وإخوانه المسلمين الذين قلبوا الدعوة الإسلامية إلى دعوة إجرامية هدامة ، ينفق عليها الشيوعيون واليهود كما نعلم ذلك علم اليقين). كتاب "تقرير عن شؤون التعليم والقضاء" (ص 48).

العبودية الحقيقية تكون باتباع السنة

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: 31-32].

قال الحافظ ابن كثير: (هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأحواله، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: [مَنْ عَمِلَ عَمَلا لَيْسَ عليه أمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ] ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول، كما قال بعض الحكماء العلماء: ليس الشأن أن تُحِبّ، إنما الشأن أن تُحَبّ وقال الحسن البصري وغيره من السلف: زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية، فقال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾). تفسير القرآن العظيم (2/ 32).

وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾. [الملك: 2].

عن إبراهيم بن الأشعث عن الإمام الفضيل بن عياض: [﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾. قال: أخلصه وأصوبه. قلت: ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصا، ولم يكن صوابًا لم يُقبل. وإذا كان صوابًا، ولم يكن خالصًا لم يُقبل حتى يكون خالصًا صوابًا، فالخالص إذا كان لله، والصواب إذا كان على السنة]. الكشف والبيان للثعلبي (27/ 91).

وقد جاءت نصوص الوحيين بالأمر بالاتباع والتحذير من الابتداع

قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 153].

وقال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: 3].

قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: 21].

وقال النبي ﷺ: [من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد]. البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: [وعَظَنَا رسولُ اللهِ ﷺ مَوْعِظَةً وجِلَتْ منها القلوبُ، وذَرَفَتْ منها العيونُ ، قال : فقلْنَا : يا رسولَ اللهِ، كأَنَّ هذه مَوْعِظَةُ مُودِّعٍ فماذا تَعْهَدُ إلينا ؟ فقال : أُوصِيكُمْ بالسَّمْعِ والطَّاعَةِ، فإنه مَنْ يَعِشْ منكم بعدي فسَيَرَى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسُنَّتِي، وسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّيْنَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بها، وعَضُّوا عليها بالنَّواجِذِ ،وإيَّاكُم ومُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فإِنَّ كلَّ بدعةٍ ضلالةٌ]. رواه أبو داود (4607)، والترمذي (2676)، وابن ماجه (42)، وأحمد (17144) باختلاف يسير، وصححه العلامة الألباني في صحيح أبي داود.

قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: [كل عبادة لم يتعبدها أصحاب محمد ﷺ فلا تتعبدوها، فإن الأول لم يدع للآخر مقالا، فاتقوا الله يا معشر القراء، وخذوا طريق من كان قبلكم]. رواه ابن وضاح في "البدع والنهي عنها" (ص10).

وفي الأثر: [أنَّ رجلًا عطسَ إلى جنبِ ابنِ عمرَ فقالَ الحمدُ للَّهِ والسَّلامُ على رسولِ اللَّهِ. قالَ ابنُ عمرَ: وأنا أقولُ: الحمدُ للَّهِ والسَّلامُ على رسولِ اللَّهِ. وليسَ هَكذا علَّمنا رسولُ اللَّهِ ﷺ. علَّمَنا أن نقولَ الحمدُ للَّهِ على كلِّ حالٍ]. رواه الترمذي (2738)، وصححه العلامة الألباني في صحيح الترمذي.

وقال سعيد بن جبير رحمه الله: [ما لم يعرفه البدريون فليس من الدين]. رواه ابن عبدالبر في "جامع بيان العلم (2/ 945).

وعن سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى قال: [سمعت أنس بن مالك، وأتاه رجل، فقال: يا أبا عبدالله، من أين أُحرم؟ قال: من ذي الحُلَيْفة، من حيث أحرم رسول الله ﷺ، فقال: إني أريد أن أُحرم من المسجد من عند القبر، فقال: لا تفعل؛ فإني أخشى عليك الفتنة، فقال: وأي فتنة في هذه؟ إنما هي أميال أزيدها، قال: وأي فتنة أعظم من أنك ترى أنك سبقت إلى فضيلة قصر عنها رسول الله ﷺ؟ إني سمعت الله يقول: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: 63]. أحكام القرآن لابن العربي المالكي (3/ 432).

وعبادة الله عز وجلّ من دون اتباع هدي النبي المصطفى ﷺ سبيل التباب، وصاحبها مجهد نفسه من غير ثواب.

﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (3) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية: 3-4]، وهؤلاء هم أهل البدع.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: [يا حبذا نوم الأكياس وإفطارهم، كيف يغبنون سهر الحمقى، وصومهم، ولمثقال ذرة من بِر مع تقوى ويقين أعظم وأفضل وأرجح من أمثال الجبال من عبادة المغترين]. أخرجه أحمد في "الزهد" (ص171).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: [عمل قليل في سنة خير من اجتهاد كثير في بدعة]. الإبانة لابن بطة (1/ 357).

وقال أيضا: [الاقتصاد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة، وكل بدعة ضلالة]. الإبانة (1/ 329).

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: [عليكم بالسبيل والسنة، فإنه ليس من عبدٍ على سبيلٍ وسنة ذكر الرحمنَ، ففاضت عيناهُ من خشية الله؛ فتمسه النار، وليس من عبدٍ على سبيل وسنة ذكر الرحمن، فاقشعرَّ جلده من خشية الله، إلا كان مَثَلُه مثل شجرةٍ يبس ورقها، فبينما هي كذلك إذ أصابتها الريح، فتحات عنها ورقها، إلا تحاتت عنه ذنوبه كما تحات عن هذه الشجرة ورقُها، وإن اقتصادًا في سبيل وسنة، خيرٌ من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة]. رواه أبو داود في الزهد (199) وغيره.

وقال الحسن البصري: [ما ازداد صاحب بدعة عبادة إلا ازداد من الله بعدا].

وقال ابن عون: [المجتهد في العبادة مع الهوى يتصل جهده بعذاب الآخرة].

وقال الأوزاعي: [قال إبليس لأوليائه: من أين تأتون بني آدم؟ فقالو: من كل باب قال: فهل تأتونهم من قبل الاستغفار؟ قالوا: إن ذلك شيء لا نطيقه؛ إنهم لمقرون بالتوحيد. قال: لآتينهم من باب لا يستغفرون الله منه، قال: فبثّ فيهم الأهواء و البدع].

وقال سعيد بن عنبسة: [ما ابتدع رجل بدعة إلا غل صدره على المسلمين و اختلجت منه الأمانة].

وقال الأوزاعي: [ما ابتدع رجل بدعة إلا سلب ورعه].

وقال ابن عون: [ما ابتدع رجل بدعة إلا أخذ الله منه الحياء و ركب فيه الجفاء].

وقال أبو قلابة: [ما ابتدع قوم بدعة إلا استحلوا فيها السيف].

وقال أبو قلابة: [إن أهل الأهواء أهل الضلالة و لا أرى مصيرهم إلا إلى النار، فجربهم فليس أحد منهم ينتحل رأيا أو قال قولا فيتناهى دون السيف، وإن النفاق كان ضروبا. ثمّ تلى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾. ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾. ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾. واختلف قولهم واجتمعوا في الشك والتكذيب، وإن هؤلاء اختلف قولهم واجتمعوا في السيف، ولا أرى مصيرهم إلا إلى النار].

روى هاته الآثار ابن بطة العكبري في "الإبانة الصغرى".

أنواع حصول الأمر الكوني من جراء العبادة

مذموم قصده: وهذا إذا كان الأمر الكوني الحاصل في مصلحة الإنسان أو مصلحة جماعته، وهذا دائر بين المكروه والمحرم، كالسعي نحو السلطة، قال النبي ﷺ: [لا تسأل الإمارة] رواه البخاري (رقم 7147)، وكطلب الرفعة لذات الإنسان بالعلم، وطلب الكرامة من جراء الاستقامة، قال بعض العلماء: [كُنْ طَالِبًا لِلِاسْتِقَامَةِ لَا طَالِبًا لِلْكَرَامَةِ. فَإِنَّ نَفْسَك منجبلة عَلَى طَلَبِ الْكَرَامَةِ وَرَبُّك يَطْلُبُ مِنْك الِاسْتِقَامَةَ] مجموع فتاوى ابن تيمية (11/ 30).

وهذا هو مقصد الإخوان المفلسين الحقيقي والوحيد، مهما أظهروا كذبا وزورا أنهم يعملون لصالح الإسلام والمسلمين.

وسيأتي بيان ذلك أكثر.

محمود قصده: وهذا إذا كان الأمر الكوني الحاصل في مصلحة الإسلام والمسلمين، وليس لحظّ النفس وشهواتها فيه مدخل، كهداية الناس للتوحيد والسنة، واستقامتهم على أمر الله عز وجل، وكتحكيم الحكام للشريعة، والانتصار على الأعداء عزّة للإسلام وأهله.

لكن بشرط أن لا يجعله أكبر همّه ولا مبلغ علمه؛ بل همّه الأكبر هو إقامة العبودية لله رب العالمين.

مثال: هداية الناس لدين الإسلام أعظم المقاصد المحمودة على الإطلاق؛ فقد قال النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه: [فواللهِ لَأنْ يهديَ اللهُ بكَ رجُلًا واحدًا خيرٌ لكَ مِن حُمْرُ النَّعَمِ]. رواه البخاري (4210)، ومسلم (2406).

ومع ذلك نهى الله نبيه الكريم أن يحزن أو يجزع من عدم هداية بني قومه للإسلام، قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: 8].

وملاك الأمر في هذا أن يفرّق المسلم بين دعوة الناس إلى الهدى وهو أداء الواجب الشرعي، وبين هدايتهم واستجابتهم للحق وهو حصول الأمر الكوني.

وسئل الشيخ ابن عثيمين عن معنى الإخلاص؟ وإذا أراد العبد بعبادته شيئا آخر فما الحكم؟ فأجاب: (الإخلاص لله تعالى معناه: **[أن يقصد المرء بعبادته التقرب إلى الله سبحانه وتعالى والتوصل إلى دار كرامته]**.

وإذا أراد العبد بعبادته شيئا آخر؛ ففيه تفصيل حسب الأقسام التالية:

القسم الأول: أن يريد التقرب إلى غير الله تعالى في هذه العبادة ونيل الثناء عليها من المخلوقين فهذا يحبط العمل، وهو من الشرك. وفي الصحيح من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: قال الله تعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه» .

القسم الثاني: أن يقصد بها الوصول إلى غرض دنيوي كالرئاسة، والجاه، والمال دون التقرب بها إلى الله تعالى فهذا عمله حابط لا يقربه إلى الله تعالى؛ لقول الله تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} .

والفرق بين هذا والذي قبله أن الأول قصد أن يثنى عليه من قبل أنه عابد لله تعالى، وأما هذا -الثاني- فلم يقصد أن يثنى عليه من قبل أنه عابد لله ولا يهمه أن يثني الناس عليه بذلك.

القسم الثالث: أن يقصد بها التقرب إلى الله تعالى والغرض الدنيوي الحاصل بها مثل أن يقصد مع نية التعبد لله تعالى بالطهارة تنشيط الجسم وتنظيفه، وبالصلاة تمرين الجسم وتحريكه، وبالصيام تخفيف الجسم وإزالة فضلاته، وبالحج مشاهدة المشاعر والحجاج فهذا ينقص أجر الإخلاص، ولكن إن كان الأغلب عليه نية التعبد فقد فاته كمال الأجر، ولكن لا يضره ذلك باقتراف إثم أو وزر لقوله تعالى في الحجاج: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ} .

وإن كان الأغلب عليه نية غير التعبد فليس له ثواب في الآخرة وإنما ثوابه ما حصله في الدنيا، وأخشى أن يأثم بذلك لأنه جعل العبادة التي هي أعلى الغايات وسيلة للدنيا الحقيرة، فهو كمن قال الله فيهم: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ} . وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة -رضي الله عنه- «أن رجلا قال: يا رسول الله رجل يريد الجهاد وهو يريد عرضا من عرض الدنيا. فقال النبي ﷺ: [لا أجر له]. فأعاد ثلاثا والنبي ﷺ يقول: [لا أجر له].» وفي الصحيحين عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «من كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» .

وإن تساوى عنده الأمران فلم تغلب نية التعبد ولا نية غير التعبد فمحلّ نظر، والأقرب أنه لا ثواب له كمن عمل لله تعالى ولغيره.

والفرق بين هذا القسم والذي قبله أن غرض غير التعبد في القسم السابق حاصل بالضرورة فإرادته إرادة حاصلة بعمله بالضرورة وكأنه أراد ما يقتضيه العمل من أمر الدنيا.

فإن قيل: ما هو الميزان لكون مقصوده في هذا القسم أغلبه التعبد أو غير التعبد؟

قلنا: الميزان أنه إذا كان لا يهتم بما سوى العبادة حصل أم لم يحصل فقد دل على أن الأغلب نية التعبد والعكس بالعكس.

وعلى كل حال فإن النية التي هي قول القلب أمرها عظيم وشأنها خطير فقد ترتقي بالعبد إلى درجة الصديقين وقد ترده إلى أسفل السافلين، قال بعض السلف: [ما جاهدت نفسي

على شيء مجاهدتها على الإخلاص]. فنسأل الله لنا ولكم الإخلاص في النية، والصلاح في العمل). مجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين (1/ 98-100).

هل هناك واجب على الله سبحانه وتعالى؟

قال الشيخ ابن عثيمين: (ومن أسماء الله تعالى الحكيم، وهو ذو الحكمة. والحكمة هي إصابة الصواب، وإن شئت فقل: وضع الشيء في موضعه، وإن شئت فقل: إتقان الشيء وإحكامه. فإذا وقع من أفعال الله أو من شرع الله ما لا نعلم له حكمة فليس ذلك إلا لقصور فهمنا، وعجزنا عن إدراك الحكمة. وإذا وقع ما نظن أنه على خلاف الحكمة فما ذاك إلا لسوء فهمنا، فالذي يظن أنه ليس له حكمة قاصر الفهم، والذي يظن أنه على خلاف الحكمة سيئ الفهم، أما سليم الفهم الذي يعطيه الله تعالى فهمًا فستتبين له الحكمة، ومع ذلك لا يمكن أن ندرك كل وجوه الحكمة؛ لأن حكمة الله عزّ وجل لا تدرك غايتها، والإنسان بشر ناقص، وكم من أحكام شرعية تظن أن حكمتها كذا وكذا ثم يتبين لك أن لها حِكَمًا أخرى، أو ربما يتبين لك أن هذه ليست الحكمة بل الحكمة شيء آخر، إنما يجب عليك أن تؤمن بأنه ما من حكم لله كوني أو شرعي إلا وله حكمة.

ولا يلزم على هذا أن تذهب مذهب المعتزلة في وجوب فعل الصلاح، أو وجوب فعل الأصلح، على الله لأمرين:

الأول: قد تظن أن هذا هو الأصلح، وليس الأصلح. ولنضرب لهذا مثلًا: نحن نظن أن الأصلح نزول الغيث، وخصب الأرض، فإذا امتنع المطر وأجدبت الأرض فقد يكون هذا هو المصلحة! ونحن لا نعلم.

إذن لا يمكن أن نقول: يجب على الله كذا لأنه أصلح، إذ قد يكون ما قلنا إنه الأصلح هو الأفسد! .

الثاني: إذا تحققنا أنه الأصلح فإنه يجب بمقتضى الحكمة لا بمقتضى العقل. فنحن لا نوجب على الله بعقولنا، والعقل لا يوجب على الله شيئًا، لأن العقل مخلوق ناقص، فلا يوجب على الكامل الأزلي الأبدي شيئًا، فإذا وجب فعل الأصلح فإنما الذي أوجبه على نفسه الله. قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] وقال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ [الليل: ١٢]. فأوجب على نفسه أن يهدي الناس ويدلهم، فإذا ثبت أن هذا هو الأصلح فقد وجب على الله بمقتضى حكمته وإيجابه على نفسه، لا بمقتضى عقولنا

وإيجابنا عليه، وبهذا ننفك عن قول المعتزلة الذين يرون أن العقل هو الذي يوجب الشيء أو الذي يمنع الشيء، أو الذي يقبح الشيء أو الذي يحسِّن الشيء. ومن ذلك مثلًا: البيان للخلق، بيان الشرائع للخلق وما يجب عليهم نحو ربهم، وما يجب عليهم نحو عباد الله، واجب على الله بمقتضى الحكمة، ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ [الليل: ١٢]) تفسير سورة آل عمران (1/ 19-21).

وهاته المسألة تسمى "مسألة الواجب على الله وفعل الأصلح"، وقد اختلف فيها المعتزلة والأشاعرة على طرفي نقيض، واختلافهم هذا راجع إلى مذهب كلّ واحد في "مسألة التحسين والتقبيح العقلي"، فقالت المعتزلة (يجب على الله فعل الأصلح)، وقالت الأشاعرة (لا يجب على الله شيء)، وخالفهم أهل السنة فقالوا: (لا واجب على الله إلا ما أوجبه على نفسه).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وَالنَّاسُ فِي هَذَا الْأَصْلِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ: **فَالْقَدَرِيَّةُ** يَقُولُونَ: يَجِبُ عَلَى اللَّهِ رِعَايَةُ الْأَصْلَحِ - أَوِ الصَّلَاحِ - فِي كُلِّ شَخْصٍ مُعَيَّنٍ، وَيَجْعَلُونَ ذَلِكَ الْوَاجِبَ مِنْ جِنْسِ مَا يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ. فَغَلِطُوا حَيْثُ شَبَّهُوا اللَّهَ بِالْوَاحِدِ مِنَ النَّاسِ، فِيمَا يَجِبُ عَلَيْهِ وَيَحْرُمُ عَلَيْهِ، وَكَانُوا هُمْ مُشَبِّهَةَ الْأَفْعَالِ، فَغَلِطُوا مِنْ حَيْثُ لَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ الْمَصْلَحَةِ الْعَامَّةِ الْكُلِّيَّةِ، وَبَيْنَ مَصْلَحَةِ آحَادِ النَّاسِ، الَّتِي قَدْ تَكُونُ مُسْتَلْزِمَةً لِفَسَادٍ عَامٍّ، وَمُضَادَّةً لِصَلَاحٍ عَامٍّ.

وَالْقَدَرِيَّةُ الْمُجْبِرَةُ الْجَهْمِيَّةُ لَا يُثْبِتُونَ لَهُ حِكْمَةً وَلَا رَحْمَةً، بَلْ عِنْدَهُمْ يَفْعَلُ بِمَشِيئَةٍ مَحْضَةٍ، لَا لَهَا حِكْمَةٌ وَلَا رَحْمَةٌ. وَالْجَهْمُ بْنُ صَفْوَانَ رَأْسُ هَؤُلَاءِ، كَانَ يَخْرُجُ إِلَى الْمُبْتَلِينَ مِنَ الْجَذْمَى وَغَيْرِهِمْ: فَيَقُولُ: أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ يَفْعَلُ هَذَا؟ ! يُرِيدُ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ رَحْمَةٌ.

فَهَؤُلَاءِ وَأُولَئِكَ فِي طَرَفَيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ.

وَالثَّالِثُ: قَوْلُ الْجُمْهُورِ: إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ رَحِيمٌ، قَائِمٌ بِالْقِسْطِ. وَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، وَهُوَ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنَ الْوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا، كَمَا نَطَقَتْ بِذَلِكَ نُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَكَمَا يَشْهَدُ بِهِ الِاعْتِبَارُ حِسًّا وَعَقْلًا، وَذَلِكَ وَاقِعٌ مِنْهُ بِحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَبِحُكْمِ أَنَّهُ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، وَحَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ الظُّلْمَ، لَا بِأَنَّ الْخَلْقَ يُوجِبُونَ عَلَيْهِ وَيُحَرِّمُونَ، وَلَا بِأَنَّهُ يُشْبِهُ الْمَخْلُوقَ فِيمَا يَجِبُ وَيَحْرُمُ، بَلْ كُلُّ نِعْمَةٍ مِنْهُ فَضْلٌ، وَكُلُّ نِقْمَةٍ مِنْهُ عَدْلٌ، وَلَيْسَ لِمَخْلُوقٍ عَلَيْهِ حَقٌّ، إِلَّا مَا أَحَقَّهُ هُوَ عَلَى نَفْسِهِ الْمُقَدَّسَةِ، كَقَوْلِهِ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [سُورَةُ الْأَنْعَامِ: ٥٤] ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سُورَةُ

الرُّومِ: ٤٧] وَذَلِكَ بِحُكْمِ وَعْدِهِ وَصِدْقِهِ فِي خَبَرِهِ، وَهَذَا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَبِحُكْمِ كِتَابِهِ عَلَى نَفْسِهِ وَحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَهَذَا فِيهِ تَفْصِيلٌ وَنِزَاعٌ مَذْكُورٌ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ). منهاج السنة النبوية (6/ 397).

قال الإمام ابن قيم الجوزية: (مذهب أهل السُّنَّة والجماعة أنَّ أفعال الله تعالى لا تقاسُ بأفعال عباده، ولا تدخُل تحت شرائع عقولهم القاصرة، بل أفعالُه لا تُشْبِهُ أفعالَ خلقه، ولا صفاتُه صفاتِهم؛ ولا ذاتُه ذواتِهم؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]) مفتاح دار السعادة (2/ 997).

وقال أيضا: (وليعلم [العاقل] أنّ إجابة الله لسائليه ليست لكرامة كلِّ سائلٍ عليه. بل يسأله عبدُه الحاجةَ فيقضيها له، وفيها هلاكه وشقوته، ويكون قضاؤها له من هوانه عليه وسقوطه من عينه. ويكون منعُه منها لكرامته عليه ومحبّته له، فيمنعه حمايةً وصيانةً وحفظًا لا بخلًا. وهذا إنّما يفعله بعبده الذي يريد كرامته ومحبّته، ويعامله بلطفه، فيظنُّ بجهله أنّ ربَّه لا يجيبه ولا يكرمه. ويراه يقضي حوائج غيره، فيسيء ظنَّه بربِّه. وهذا حَشْوُ قلبه ولا يشعر به، والمعصوم من عصمه الله، والإنسان على نفسه بصيرةٌ. وعلامةُ هذا حملُه على الأقدار وعتابُه الباطن لها، كما قيل:

وعاجزُ الرّأي مِضياعٌ لفرصته ... حتّى إذا فات أمرٌ عاتبَ القدَرا

فوالله لو كُشِف عن حاصله وسرِّه لرأى هناك معاتبة القدر واتِّهامه، وأنّه قد كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، ولكن ما حيلتي، والأمر ليس إليّ؟ والعاقلُ خصمُ نفسه، والجاهلُ خصمُ أقدار ربِّه...

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦)﴾ [الفجر: ١٥ - ١٧]. أي: ليس كلُّ من أعطيتُه ونعَّمتُه وخوَّلتُه فقد أكرمتُه. وما ذاك لكرامته عليّ، ولكنّه ابتلاءٌ منِّي وامتحانٌ له: أيشكرني فأعطيه فوق ذلك، أم يكفرني فأسلبه إيّاه، وأخوِّله غيرَه! وليس كلُّ من ابتليته فضيّقتُ عليه رزقَه، وجعلتُه بقدرٍ لا يفضُل عنه، فذلك من هوانه عليّ؛ ولكنّه ابتلاءٌ وامتحانٌ منِّي له: أيصبر فأعطيه أضعاف أضعاف ما فاته من سعة الرِّزق، أم يتسخَّط فيكون حظُّه السُّخط!

فردَّ الله سبحانه على من ظنَّ أنّ سعةَ الرِّزق إكرامٌ، وأنّ الفقر إهانةٌ، فقال: لم أبتلِ عبدي بالغنى لكرامته عليّ، ولم أبتلِه بالفقر لهوانه عليّ. فأخبر أنّ الإكرام والإهانة لا يدوران

على المال وسعة الرِّزق وتقديره، فإنّه يوسِّع على الكافر لا لكرامته، ويقتِّر على المؤمن لا لإهانته له، إنّما يُكرم مَن يُكرمه بمعرفته ومحبّته وطاعته، ويهين مَن يهينه بالإعراض عنه ومعصيته. فله الحمد على هذا وعلى هذا، وهو الغنيُّ الحميد). مدارج السالكين (1/ 122-125).

الاجتماع نوعان: اجتماع أديان واجتماع أبدان

اجتماع الأديان: مبني على صحة العقيدة والمنهج، ولا يشترط له زمان ولا مكان ولا جماعة الناس ولا الرأس المجتمع حوله، ومن خالفه فعقوبته الإقصاء والطرد من الجماعة.

وقولنا: (لا يشترط له زمان ولا مكان ولا جماعة الناس ولا الرأس المجتمع حوله)، معناه: السلفي في أقصى شرق الأرض مجتمع دينينا وعقديا مع السلفي في أقصى غربها وإن لم يره ولم يسمع به، أو عاش في زمن غير زمنه، ولا يشترط له جماعة الناس ولا الرأس المجتمع حوله؛ لأن هذه صفة التنظيمات الحزبية السياسية، والسلفية ليست حزبا بالمعنى السياسي المعروف.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: [الجماعة ما وافق الحق؛ ولو كنت وحدك]. رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (رقم160)، وصحح سنده الشيخ الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح (1 /61).

قال الإمام ابن قيم الجوزية: (اعلم أن الإجماع والحجة والسواد الأعظم هو العالم صاحب الحق وإن كان وحده، وإن خالفه أهل الأرض... فإذا ظفرت برجل واحد من أولي العلم طالب للدليل محكم له، متبع للحق حيث كان وأين كان، ومع من كان زالت الوحشة وحصلت الألفة). إعلام الموقعين (4/ 397 بتصرف).

قال الإمام أبو عثمان الصابوني حاكيا إجماع السلف وأهل الحديث على وجوب إقصاء المخالف المبتدع: (واتفقوا على القول بقهر أهل البدع وإذلالهم وإخزائهم، وإبعادهم وإقصائهم، والتباعد عنهم، ومن مصاحبتهم ومعاشرتهم، والتقرب إلى الله عز وجل بمجانبتهم ومهاجرتهم) عقيدة السلف أصحاب الحديث (ص ١٣٤).

ولا يوصف الرجل بالسنة والسلفية حتى تجتمع فيه خصال السنة كلها، قال الإمام أحمد لما أراد بيان أصول السنة: (وَمن السُّنَّة اللَّازِمَة الَّتِي من ترك مِنْهَا خصْلَة لم يقبلهَا ويؤمن بهَا لم يكن من أَهلهَا) طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى (2/ 167).

قال الإمام البربهاري: (ولا يحل لرجل مسلم أن يقول: فلان صاحب سنة، حتى يعلم منه أنه قد اجتمعت فيه خصال السنة، لا يقال له: صاحب سنة حتى تجتمع فيه السنة كلها) شرح السنة (ص 122).

فمن يريد تقييد السلفية بوصف دون اجتماع خصال السنة كلها فقد خالف منهج السلف، وهذا كمن يقتصر على وصف السلفي بأنه (يحذّر من الإخوان، ولا يرى الخروج على ولاة الأمر)، أو السلفي عنده هو (من وافق السلف في باب الأسماء والصفات) أو يحسبه (كلّ من أعفى لحيته وقصّر ثوبه)، فهذه كلها تقييدات باطلة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا النوع من الاجتماع: (ولا يشرع اجتماع طائفة وتحزّبهم على التناصر المطلق، بحيث ينصر بعضهم بعضا في الحق والباطل، بل الواجب على كل أحد اتباع كتاب الله وسنة رسوله). جامع المسائل (1/ 191).

اجتماع الأبدان: لا يبنى على صحة العقيدة والمنهج، ويشترط له الزمان والمكان وجماعة الناس والرأس المجتمع حوله وهو ولي الأمر، ومن خالفه فعقوبته ردّه إلى الجماعة، فإن لم يستجب يقتل.

فالسلفي وغير السلفي وجميع من ينتحل الإسلام في الدولة المسلمة يجب عليهم أن يكونوا جميعا تحت راية وليّ الأمر، ولا يعذر أحدهم بكون الآخر مخالفا له في العقيدة أن لا يبايع ولي الأمر أو يخرج عن طاعته أو عن جماعة المسلمين التي هي رعيته.

قال رسول اللهِ ﷺ: [مَن خَلَعَ يَدًا مِن طَاعَةٍ، لَقِيَ اللَّهَ يَومَ القِيَامَةِ لا حُجَّةَ له، وَمَن مَاتَ وَليسَ في عُنُقِهِ بَيْعَةٌ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً]. رواه مسلم (رقم 1851).

وقال أيضا: [من فارق الجماعةَ قَيْدَ شِبرٍ فقد خلع رِبقةَ الإسلامِ من عُنُقِهِ] رواه أبو داود وغيره، وصححه العلامة الألباني في تخريج كتاب السنة لابن أبي عاصم (رقم 892).

وقال أيضا: [إنه ستكون هنات وهنات، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائنا من كان]. رواه مسلم (1852).

وفي رواية لمسلم أيضا: [من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد منكم يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه].

عقد البيعة لولي الأمر المسلم والسمع والطاعة له في المعروف عقد واجب وليس عقد معاوضة حسب المصلحة

وفي هذا ردٌّ على من يقول: كيف نسمع لهم ونطيع وهم لا يعطوننا حقوقنا؟! أو يقول مظهرا أنه صاحب غيرة على تطبيق الشريعة: لا نبايعهم وهم يحكمون بالديمقراطية؟!

ولو طبّق ما جاءت به الشريعة لبايعهم على السمع والطاعة في المعروف ما داموا مسلمين، فإن عقد البيعة للحاكم المسلم لا ينخرم إلا بكفره أو ذهاب منصبه.

السمع والطاعة لولي الأمر مقيّدة بالمعروف ولا طاعة في المعصية

وإذا علمت أن قاعدة التعامل مع ولي الأمر تكون بالمعروف، فما الذي يضيرك في ذلك ما دامها مقيّدة بالمعروف؟!

أرأيت لو أنّ والدك كان عربيدا فاسقا وأمرك بمعروف، أتطيعه أم تقول له: إنك تفعل كذا وكذا، فلا سمع لك ولا طاعة؟!

وقاعدة التعامل بالمعروف تكون أيضا حتى مع جميع الناس، وليس ولي الأمر وحده، أو الوالد وحده، فما الذي يضيرك إذا كان الناس سواسية في هذا؟!

وفي هذا ردٌّ على يزعم كذبا وزورا أن أهل السنة السلفيين يطيعون ولاة أمورهم حتى في المعصية، والعجيب أن من يقول هذا هم من الإخوان المفلسين الذين يطيعون مرشدهم العام حتى في الكفر! كما سيأتي.

الحاكم هو وحده المطالب بتحكيم الشريعة في الرعية

إن مكانة طاعة ولي الأمر في الإسلام عظيمة، ويكفي أن النبي ﷺ قرنها بطاعة الله وطاعة رسوله؛ فقال: [مَن أطَاعَنِي فقَدْ أطَاعَ اللَّهَ، ومَن عَصَانِي فقَدْ عَصَى اللَّهَ، ومَن يُطِعِ الأمِيرَ فقَدْ أطَاعَنِي، ومَن يَعْصِ الأمِيرَ فقَدْ عَصَانِي، وإنَّما الإمَامُ جُنَّةٌ يُقَاتَلُ مِن ورَائِهِ ويُتَّقَى به، فإنْ أمَرَ بتَقْوَى اللَّهِ وعَدَلَ، فإنَّ له بذلكَ أجْرًا وإنْ قالَ بغَيْرِهِ فإنَّ عليه منه]. رواه البخاري (2957)، ومسلم (1835).

والعجيب أن تجد ممن يزعم ويدعو لتحكيم الشريعة من الإخوان المفلسين وأذنابهم من السرورية أوّل من يشغّب على هذا الأمر ويستهزئ به بلا خوف ولا حياء من الله عزّ وجلّ، ويزعم أنه بهذا حرّ منطلق غير خاضع! ويصف من ينادي به بأنه من "غلاة الطاعة وعبيد الحكام"، وكذب؛ بل هو -والله- خانع وخاضع مستعبد لمرشد جماعته الماسوني لا يملك معه حتى روحه التي بين جنبيه! وسيأتي في فصل خاص بيان تقديس

الإخوان المفلسين لمرشدهم الماسوني وأنهم هم "غلاة الطاعة وعبيد عبيد الغرب".

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي: (وأما السمع والطاعة لولاة أمور المسلمين، ففيها سعادة الدنيا، وبها تنتظم مصالح العباد في معاشهم، وبها يستعينون على إظهار دينهم وطاعة ربهم). جامع العلوم والحكم (ص/ 356).

ولما كان له هذه المكانة العظيمة، فإن الله أوجب عليه واجبات عظيمة منوطة به، لا يشاركها فيه غيره، وأعظمها: تحكيم شريعة رب العالمين في رعيته، وأعظمها توحيده سبحانه وتعالى وترك عباده ما سواه.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

قال الحافظ ابن كثير: (وقوله: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ أمر منه تعالى بالحكم بالعدل بين الناس; ولهذا قال محمد بن كعب وزيد بن أسلم وشهر بن حوشب: إنما نزلت في الأمراء، يعني: الحكام بين الناس). تفسير القرآن العظيم (2/ 341).

قال الإمام ابن جرير الطبري لما ذكر الخلاف في الآية؛ هل هي عامة في ولاة الأمر، أم خاصة خوطب بها النبي ﷺ في مفتاح الكعبة: (وأولى هذه الأقوال بالصواب في ذلك عندي، قولُ من قال: هو خطاب من الله ولاةَ أمور المسلمين بأداء الأمانة إلى من وَلُوا أمره في فيئهم وحقوقهم، وما ائتمنوا عليه من أمورهم، بالعدل بينهم في القضية، والقَسْم بينهم بالسوية. يدل على ذلك ما وَعظ به الرعية في: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾، فأمرهم بطاعتهم، وأوصى الرّاعي بالرعية، وأوصى الرعية بالطاعة). جامع البيان (7/ 171).

ولهذا كانت الآية التي بعدها مباشرة: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾، فجمعت الآيتان بين مطالبة الراعي بتحكيم الشريعة في الرعية وبين مطالبة الرعية بطاعة الراعي.

وقال عليه ﷺ: [كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيتِهِ، فالأميرُ الذي على الناسِ راعٍ عليهم وهو مسؤولٌ عنهم، والرجلُ راعٍ على أهلِ بيتِهِ وهو مسؤولٌ عنهم، والمرأةُ راعيةٌ على بيتِ بعلها وولدِهِ وهي مسؤولةٌ عنهم، وعبدُ الرجلِ راعٍ على بيتِ سيدِهِ وهو مسؤولٌ عنهُ. ألا فكلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيتِهِ] رواه البخاري (2554)، ومسلم (1829).

ولمّا كان تطبيق الشريعة في الرعية حقًّا لولي الأمر لا يلزم بتطبيقه سواه، عدّت الشريعة من يتقدم بين يديه فيطبق الحدود ويقتص للمظلوم من ظالمه مفتاتا على صلاحيات ولي الأمر، وجزاؤه التعزير والتأديب، **فكما أنه مخصوص بتشريف لا يشاركه فيه غيره فهو كذلك مخصوص بتكليف لا يشاركه فيه غيره.**

قال الإمام محمد بن الحسن الشيباني الحنفي: (مَا يَكُونُ مَرْجِعُهُ إلَى عَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ فِي النَّفْعِ وَالضَّرَرِ فَالْإِمَامُ هُوَ الْمَنْصُوبُ لِلنَّظَرِ فِي ذَلِكَ، فَالِافْتِيَاتُ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ يَرْجِعُ إلَى الِاسْتِخْفَافِ بِالْإِمَامِ، وَلَا يَنْبَغِي لِلرَّعِيَّةِ أَنْ يُقْدِمُوا عَلَى مَا فِيهِ اسْتِخْفَافٌ بِالْإِمَامِ) شرح السير الكبير للسرخسي (ص 576).

قال العلامة الماوردي الشافعي: (عَلَى كَافَّةِ الْأُمَّةِ تَفْوِيضُ الْأُمُورِ الْعَامَّةِ إلَيْهِ -يعني: ولي الأمر- مِنْ غَيْرِ افْتِيَاتٍ عَلَيْهِ وَلَا مُعَارَضَةٍ لَهُ؛ لِيَقُومَ بِمَا وُكِّلَ إلَيْهِ مِنْ وُجُوهِ الْمَصَالِحِ وَتَدْبِيرِ الْأَعْمَالِ) الأحكام السلطانية (ص 93).

وقال العلامة ابن الأزرق المالكي: (الْمُخَالفَة الثَّالِثَة: الافتيات عَلَيْهِ فِي التَّعْرِيض لكل مَا هُوَ مَنُوط بِهِ، وَمن أعظمه فَسَادًا تَغْيِير الْمُنكر بِالْقدرِ الَّذِي لَا يَلِيق إِلَّا بالسلطان؛ لما فِي السَّمْح بِهِ والتجاوز بِهِ إِلَى التَّغْيِير عَلَيْهِ، وَقد سبق أَن من السياسة تَعْجِيل الْأَخْذ على يَد من يتشوق لذَلِك وَتظهر مِنْهُ مبادئ الِاسْتِظْهَار بِهِ، وَإِن كَانَ لَا ينجح لَهُ سعي وَلَا يتم لَهُ غَرَض) بدائع السلك في طبائع الملك (2 / 45).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية الحنبلي: (وليس لأحد أن يزيل المنكر بما هو أنكر منه: مثل أن يقوم واحد من الناس يريد أن يقطع يد السارق، ويجلد الشارب، ويقيم الحدود؛ لأنه لو فعل ذلك لأفضى إلى الهرج والفساد؛ لأن كل واحد يضرب غيره ويدعي أنه استحق ذلك؛ فهذا مما ينبغي أن يقتصر فيه على ولي الأمر المطاع كالسلطان ونوابه). المستدرك على مجموع الفتاوى (3/ 203).

والافتيات أنواع يجمعها التقدم بين ولي الأمر بكلّ ما هو من صلاحياته.

قال العلامة النووي الشافعي: (قال أصحابنا: ويكره لغير الإمام ضرب الدراهم والدنانير وإن كانت خالصة؛ لأنه من شأن الإمام) المجموع (5/ 350).

قال العلامة الزركشي الشافعي: (وضرب الدراهم بغير إذن الإمام يقتضي التعزير) خبايا الزوايا (1/ 138).

وأتي الخليفة عمر بن عبدالعزيز رحمه الله برجل يضرب على غير سكة السلطان فعاقبه وسجنه، وأخذ حديده فطرحه في النار) فتوح البلدان (472).

استفدت بعض ما هنا من كتاب "الافتيات على الإمام أو نائبه وآثاره الفقهية".

فعُلِم مما تقدم أن تحكيم الشريعة بين الرعية مثلما هو حقّ خالص للإمام، فإنه واجب خالص على الإمام، فإن حكّمها فالحمد لله، وإن لم يحكمها فأمره بينه وبين ربّه، وهو الذي يحاسبه، وواجب الرعية تجاهه نصيحته في ذلك، ولا يجب عليها أكثر من ذلك.

قال رسول الله ﷺ: [مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصَحَ لِذِي سُلْطَانٍ فَلا يُبْدِهِ عَلانِيَةً، وَلَكِنْ يَأْخُذُ بِيَدِهِ فَيَخْلُوا بِهِ، فَإِنْ قَبِلَ مِنْهُ، فَذَاكَ، وَإِلا كَانَ قَدْ أَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ] رواه ابن أبي عاصم في السنة (رقم 1096)، وصححه الألباني في "ظلال الجنة".

ولم يقل عليه الصلاة والسلام: (فإن لم يقبل منه فلم يؤدّ ما عليه، وليخترع أيّ طريقة تجعله يقبل النصيحة رغما عنه)!

شبهة ساذجة لكنها خطيرة: قال أحدهم: (إذا قلت: (إن تحكيم الشريعة يجب على الحاكم وحده، ولا يجب على الرعية أن يلزموه بتطبيقها رغما عنه)، هنا يجدها الحاكم فرصة سانحة لبقائه على الديمقراطية، فلا رقيب ولا حسيب، وهكذا لن تحكّم الشريعة أبدا)!

وجوابها: من وجوه عدة وجوه:

1- أن الأحكام الشرعية تستقى من الكتاب والسنة، وفهمها يكون بفهم السلف الصالح ومن سار على منهجهم، فالسعيد من رضي بسبيلهم واتبع، والشقيّ من خالف منهجاهم وابتدع.

وعليه، فلا يجوز لأي شخص أن يخترع أيّ طريقة تخالف الطريقة الشرعية ليجعل الحاكم حاكما بالشريعة، وهذا كطرق الإخوان المفلسين في دخولهم للانتخابات بحجة أنها السبيل للتغيير وإزالة الحاكم الذي لا يحكم بالشريعة -زعموا-!

2- أن مقتضى الأدلة الشرعية في التعامل مع ولي الأمر هو أن نعاملهم بأداء ما علينا لا أن نعاملهم بأداء ما عليهم، وهذا يعني أن ننظر إلى ما أوجبه الله علينا فنقوم به ولو لم يقم الحكام بأداء ما أوجبه الله عليهم، فواجب المسلم النصيحة لولي الأمر حتى لو لم يستجب.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي: (لا يجوز الافتئات على الأئمة ونوابهم ولا إظهار مخالفتهم، ولو كانوا مفرّطين في نفس الأمر؛ فإن تفريطهم عليهم لا على من لم يفرّط.

كما قال النبي ﷺ في الأئمة: [يصلون لكم فإن أصابوا فلكم ولهم، وإن أخطئوا فلكم وعليهم]) مجموع رسائله (2/ 608).

وقد سمعت أحد السرورية ينقل قصة عن الشيخ عبدالعزيز ابن باز، فيها ما معناه: (أنه جاءه شخص فقال: يا شيخ! نصحت فلانا في خطأ فلم يستجب.

فقال الشيخ: ارجع فانصحه.

فذهب الرجل ثم عاد فقال: نصحته فلم يستجب.

فقال الشيخ: ارجع فانصحه.

فذهب الرجل مرة أخرى ثم عاد فقال: نصحته فلم يستجب.

فقال الشيخ: ارجع فانصحه.

فقال الرجل: إلى متى وأنا أنصحه وهو يستكبر عن قبول نصيحتي؟!

فقال الشيخ: إلى الممات).

يحكي هذه القصة لينزّلها على المتلاعبين من رؤوس جماعته الذين إذا تكلّم الواحد فيهم وحذّر الناس من شرّهم قالوا: وهل ناصحته؟!

فهل سيتخلّى هؤلاء عن حقدهم وغلّهم وغشّهم لولاة أمورهم، والذي قامت جماعته عليه، وينصحون لحاكمهم حتى الممات؟!

3- أن أداء الأحكام الشرعية منوط بالاستطاعة، قال تعالى: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾، والناصح لحاكمه قد اتّقى الله ما استطاع، ولم يكلّفه الله سبحانه فوق ذلك.

4- أن قبول الحاكم للنصيحة هو من (حصول الأمر الكوني)، وهو شيء لم يكلفنا الله عزّ وجلّ به، وإنما علينا نصحه وتذكيره، وهو من (أداء الأمر الشرعي)، وهذا ما كلّفنا الله عزّ وجلّ به.

5- أن من سيحاسب الحاكم على تقصيره أو تضييعه لتحكيم الشريعة هو ربّ العالمين، وهو أيضا من سيحاسب كلّ واحد من الخلق على تقصيره أو تضييعه لفرائض ربّه عليه، فكما تريد أن يكون هناك رقيب على الحاكم فارض برقيب عليك في جميع تصرفاتك، وهذا لن يقبله أكثر الخلق، ولسان حالهم وربما مقالهم: [خلّني بيني وبين

ربي، أَبُعِثْتَ عليّ رقيبا؟!].

ومن الأدلة أيضا على أن الحاكم إذا فعل منكرا حسابه بينه وبين خالقه، ولا يحاسبه الشعب، هو قول النبي ﷺ: [سَيَكونُ خُلَفاءُ فَيَكْثُرُونَ. قالوا: فَما تَأْمُرُنا؟ قالَ: فُوا ببَيْعَةِ الأوَّلِ فالأوَّلِ، أعْطُوهُمْ حَقَّهُمْ؛ فإنَّ اللَّهَ سائِلُهُمْ عَمَّا اسْتَرْعاهُمْ]. رواه البخاري (3455) واللفظ له، ومسلم (1842). ولم يقل: (فإنكم سائلوهم عما استرعيتوهم عليه). وهناك غيره من الأدلة في معناه.

ومن طريف ما يحكى أن أحدهم سأل الشيخ ابن عثيمين تغمده الله برحمته: (لماذا لا تنصحون الحكام؟!

فقال الشيخ: وما بالك أننا لا ننصحهم؟!

فقال: هاهم لا ينتهون!

فقال الشيخ: ها أنتم ننصحكم ولا تنتهون!).

6- أن ما تسميه بـ (الرقيب والحسيب على الحاكم) هذا في الديمقراطية التي تقوم على (حكم الشعب للشعب) وليس في الإسلام، فتجعل من كلّ فرد في الدولة حاكما يقرّر ما يشاء ويعترض على ما يشاء ولو كان كافرا، وهذه هي الفوضى.

والذي يوجد في الشريعة هو (أهل الحلّ والعقد) في الدولة، وهم القائمون بدور ما تسميه (الحسيب والرقيب)، ولكن بحدود وضوابط الإسلام، لا حدود وضوابط الديمقراطية الغربية، ولا حدود وضوابط جماعة الإخوان المفلسين الماسونية.

وقد سئل الشيخ ابن عثيمين عن عزل أهل الحلّ والعقد للإمام؛ فقال: (هذا ينبني على خلاف العلماء؛ هل الإمام نائب عن المسلمين أو ولي من قبل الله؟ ذكر ابن رجب رحمه الله قولين لأهل العلم في القواعد الفقهية. فإن قلنا أنه نائب عن المسلمين فلأهل الحل والعقد أن يعزلوه، وإن قلنا أنه ولي من قبل الله فإنهم لا يعزلونه؛ اللهم إلا إذا فسد أمره نهائيا وصار غير صالح إطلاقا، فهذا ربما يقال إنه لا بأس بعزله). شرح صحيح البخاري (شريط 11).

ولمعرفة ضوابط عزل أهل الحلّ والعقد للحاكم، ومعرفة من هم أهل الحلّ والعقد أصلا، وما هي الصفات التي يجب أن تتوفر فيهم، يرجع للمطولات من كتب الفقه أو الكتب المتخصصة في السياسة الشرعية، وليس هذا محلّ بسط ذلك.

إعلان الجهاد من صلاحيات ولي الأمر وحده ولا يشاركه في ذلك العلماء أو غيرهم

سبق أن عرفت أن تحكيم الشريعة بين الرعية من واجبات وصلاحيات وليّ الأمر وحده لا يشاركه في ذلك غيره، والجهاد في حقيقته لا يخرج عن هذه القاعدة لكونه أيضا من تحكيم الشريعة إذا توفرت شروطه وانتفت موانعه.

وليس للعلماء في إعلان الجهاد والدخول فيه من عدمه أيّ مدخل؛ لأن تقدير المصالح والمفاسد في ذلك من خصوصيات وليّ الأمر لا يشاركه فيها غيره، وتفصيل ذلك بقولنا:

الجهاد نوعان:

1- جهاد ميداني: وهو الذي نتكلم عنه الآن، وهو من خصائص ولي الأمر، وسيأتي بيان ذلك.

2- جهاد إيماني: وهو جهاد أهل البدع والكفر من محاربي الدين أو محرّفيه، وهذا من خصائص العلماء.

والنصر على الأعداء الذي هو غاية الجهاد أيضا نوعان:

1- نصر ميداني: وهو الفوز على الأعداء في ميدان المعركة بالسيف والسنان.

2- نصر إيماني: وهو الانتصار على أهل البدع والكفر بالحجة والبيان.

وإذا كان الجهاد الإيماني بالردّ على أهل البدع والكفر وظيفة العلماء، فكذلك الجهاد الميداني في قتال العدوّ في المعركة من وظيفة وليّ الأمر، وكما أن تحقيق النصر الإيماني على أهل البدع والكفر لا يقدّره إلا العلماء، فكذلك النصر الميداني على العدوّ لا يقدّره إلا وليّ الأمر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية مبينا أن الجهاد الإيماني بالردّ على أهل البدع والكفر يلزمه أن يأتي بثماره: (فكلّ من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم لم يكن أعطى الإسلام حقه، ولا وفّى بموجب العلم والإيمان، ولا حصل بكلامه شفاء الصدور وطمأنينة النفوس، ولا أفاد كلامه العلم واليقين) درء تعارض العقل والنقل (1/ 357).

ولذلك اشترط العلماء فيمن يردّ على أهل البدع أن يردّ عليهم بعلم، وهو سلاح المجاهد الإيماني، وإلا فالسكوت عنهم هو الواجب.

قال الحافظ ابن رجب: «كان ابن المبارك، أو غيره من الأئمة يقول: [ليس أهل السنة

عندنا من ردّ على أهل الأهواء، بل من سكت عنهم]». مجموع رسائله (2/ 638).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «كان السلف إذا قيل: فلان يردّ على فلان؛ قالوا: بكتاب وسنة؟ فإن قال: نعم؛ صوّبوه، وإن قال: لا؛ قالوا: رد بدعة ببدعة!». جامع المسائل (9/ 12).

فالمتقدم على العلماء بين أيديهم بالفتوى أو غيرها من خصوصياتهم مفتات عليهم يستحقّ التعزير، فكذلك المتقدم بين يدي ولي الأمر فيما هو من خصوصياته مفتات عليه يستحقّ التعزير.

قال الإمام المبجّل مالك بن أنس: (أَخْبَرَنِي رَجُلٌ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى رَبِيعَةَ بْنِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ فَوَجَدَهُ يَبْكِي، فَقَالَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ وَارْتَاعَ لِبُكَائِهِ فَقَالَ لَهُ: أَمُصِيبَةٌ دَخَلَتْ عَلَيْكَ؟ فَقَالَ: لَا، وَلَكِنِ اسْتُفْتِيَ مَنْ لَا عِلْمَ لَهُ وَظَهَرَ فِي الْإِسْلَامِ أَمْرٌ عَظِيمٌ، قَالَ رَبِيعَةُ: وَلَبَعْضُ مَنْ يُفْتِي هَا هُنَا أَحَقُّ بِالسَّجْنِ مِنَ السُّرَّاقِ) جامع بيان العلم لابن عبدالبر القرطبي (2/ 225).

قال الإمام ابن قيم الجوزية: (وكان شيخنا -أي: ابن تيمية- رضي الله عنه، شديد الإنكار على هؤلاء -أي: المفتين بغير علم-، فسمعته يقول: قال لي بعض هؤلاء: أجُعلتَ محتسباً على الفتوى؟ فقلتُ له: يكون على الخبازين والطباخين محتسب، ولا يكون على الفتوى محتسب؟!). إعلام الموقعين (5/ 104).

سؤال: لماذا هذا التقسيم والتفصيل؟

جوابه: لأنّ ولاة الأمر نوعان:

1- ولاة أمر في الجانب القدري، وهم الحكام.

2- ولاة أمر في الجانب الشرعي، وهم العلماء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (قيل: [صنفان من الناس إذا صلحوا صلح الناس: العلماء والأمراء]، وكما أن المنفعة فيهما فالمضرّة منهما؛ فإن البدع والظلم لا تكون إلا فيهما؛ أهل الرياسة العلمية، وأهل الرياسة القدرية). مجموع الفتاوى (14/ 276).

فهذا التفصيل يعطينا الضابط في دخول العلماء والحكام في باب الجهاد؛ فالعالم له في الجهاد الجانب الشرعي (الفتيا)، والحاكم له في الجهاد الجانب القدري (إعلان الجهاد والدخول فيه من عدمه).

روى الإمام ابن عبد البر القرطبي المالكي: (عن هشام بن عروة، قال: [ما سمعت أبي يقول في شيء قط برأيه، قال: وربما سئل عن شيء، فيقول: هذا من خالص السلطان].

وعن ابن هرمز، قال: [أدركت أهل المدينة، وما فيها إلا الكتاب والسنة، والأمر ينزل، فينظر فيه السلطان]). جامع بيان العلم وفضله (2/ 1065-1066).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وَالْجِهَادُ لَا يَقُومُ بِهِ إِلَّا وُلَاةُ الْأُمُورِ) منهاج السنة (6/ 118).

قال الإمام الموفق ابن قدامة: (وَأَمْرُ الْجِهَادِ مَوْكُولٌ إلَى الْإِمَامِ وَاجْتِهَادِهِ، وَيَلْزَمُ الرَّعِيَّةَ طَاعَتُهُ فِيمَا يَرَاهُ مِنْ ذَلِكَ). المغني شرح مختصر الخرقي (13/ 16).

ثم علّل ذلك بقوله: (لا يخْرُجونَ إلا بإذْنِ الأمِيرِ؛ لأنَّ أمْرَ الحَرْبِ مَوْكُولٌ إليه، وهو أَعْلَمُ بِكَثْرَةِ العَدُوِّ وقِلَّتِهم، ومَكامِنِ العَدُوِّ وكَيْدِهم، فيَنْبَغِى أنْ يُرْجَعَ إلى رَأْيِه، لأنَّه أَحْوَطُ للمسلمين). المغني (13/ 34).

وقال الشيخ ابن عثيمين: (لا يجوز غزو الجيش إلا بإذن الإمام مهما كان الأمر؛ لأن المخاطب بالغزو والجهاد هم ولاة الأمور، وليس أفراد الناس، فأفراد الناس تبع لأهل الحل والعقد، فلا يجوز لأحد أن يغزو دون إذن الإمام إلاّ على سبيل الدفاع، وإذا فاجأهم عدو يخافون كلَبه فحينئذ لهم أن يدافعوا عن أنفسهم لتعين القتال إذاً.

وإنما لم يجز ذلك؛ لأن الأمر منوط بالإمام، فالغزو بلا إذنه افتيات وتعدٍّ على حدوده، ولأنه لو جاز للناس أن يغزوا بدون إذن الإمام لأصبحت المسألة فوضى، كل من شاء ركب فرسه وغزا، ولأنه لو مكن الناس من ذلك لحصلت مفاسد عظيم) الشرح الممتع (8/ 22).

ومن الأدلة الشرعية على أن إعلان الجهاد من عدمه هو لولي الأمر وحده هو قول النبي ﷺ: [إنَّما الإمَامُ جُنَّةٌ يُقَاتَلُ مِن ورَائِهِ ويُتَّقَى به]. رواه البخاري (2957)، ومسلم (1835).

وهاته الصفة المذكورة في الحديث [جُنَّةٌ يُقَاتَلُ مِن ورَائِهِ ويُتَّقَى به] لا توجد في العلماء، فالعلماء لا يحمون عامة الناس من الرعية؛ لأن العدة من السلاح ونحوه ليست بأيديهم.

وفي لفظ الحديث لطيفة أشار إليها الحافظ بدر الدماميني المالكي بقوله: (وإنما الإمام جُنَّة يُقاتَل من ورائه، ويُتَّقَى به): هذا تنبيهٌ على عِظَمِ حقِّ الإمام، وأن لا يَعتقدَ مَنْ قاتل عنه

أنه حماه، بل ينبغي أن يعتقدَ أنه احتمى به؛ لأنه فيئُه، وبه قويت مُنَّتُهُ). مصابيح الجامع (6/ 311).

والحاصل أنه لا يجوز لأيّ مسلم مهما كان أن يذهب للجهاد دون إذن ولي الأمر، ولا يقل: (قد أفتانا الشيخ فلان بالذهاب)؛ فإن هذا من صلاحيات وليّ الأمر وحده، وإذا كان ذلك العالم أذن لك فعلا فإذنه خطأ لا يجوز اتّباعه.

النصر في الجهاد ليس مرادا لذاته، وإنما للقيام بالعبودية

قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: 55].

قال الإمام ابن كثير: (هذا وعد من الله لرسوله ﷺ بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض، أي: أئمةَ الناس والولاةَ عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد، ولَيُبدلَنّ بعد خوفهم من الناس أمنا وحكما فيهم، وقد فعل ذلك. وله الحمد والمنة) تفسير القرآن العظيم (6/ 77).

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: 41].

قال الحافظ ابن كثير: (قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: فينا نزلت: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾، فأخرجنا من ديارنا بغير حق، إلا أن قلنا : ربنا الله، ثم مكنا في الأرض، فأقمنا الصلاة، وآتينا الزكاة، وأمرنا بالمعروف، ونهينا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور، فهي لي ولأصحابي) تفسير القرآن العظيم (5/ 436).

فهم قبل التمكين في عبودية، وبعد التمكين في عبودية، والتمكين في حدّ ذاته لإقامة العبودية، وإن لم يمكّن لهم أصلا فهم في عبودية، فلا ينفكّون عن العبودية في كل وقت وحين.

تنصيب ولي الأمر والخليفة ليس مرادا لذاته وإنما لتحقيق العبودية

سبق بيان أنّ التمكين في جهاد الكفار هو للقيام بالعبودية، وأما في حالة انتشار الإسلام وسيادته كما في دولنا المسلمة حاليا -والحمد لله على فضله؛ لا كما يزعم الإخونجية أن

بلادنا بلاد كفر حتى يصلوا هم للحكم فتصبح بلادنا بلاد إسلام-، وما دامت بلاد إسلام ففي هذه الحالة نحتاج أن يكون لدولنا حاكم وقائد، وتنصيب هذا القائد هو أيضا لتحقيق العبودية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وَجَمِيعُ الْوِلَايَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ إنَّمَا مَقْصُودُهَا الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ سَوَاءٌ فِي ذَلِكَ وِلَايَةُ الْحَرْبِ الْكُبْرَى: مِثْلُ نِيَابَةِ السَّلْطَنَةِ وَالصُّغْرَى مِثْلُ وِلَايَةِ الشُّرْطَةِ: وَوِلَايَةُ الْحُكْمِ؛ أَوْ وِلَايَةُ الْمَالِ وَهِيَ وِلَايَةُ الدَّوَاوِينِ الْمَالِيَّةِ؛ وَوِلَايَةُ الْحِسْبَةِ). مجموع الفتاوى (28/ 66).

وقال أيضا: (ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا تمام للدين والدنيا إلا بها) السياسة الشرعية (ص 237).

يعني: إقامة الدين واجبة، ولا يقوم الدين إلا بوجود إمام حاكم، فوجب إقامة الحاكم حتى يقوم الدين، والقاعدة الشرعية (ما لا يتمّ الواجب إلا به فهو واجب).

وقال أيضا: (فالواجب اتخاذ الإمارة دينًا وقُربة يتقرب بها بالعمل الصالح فيها إلى الله تعالى، فإن التقرب إليه فيها بطاعته وطاعة رسوله من أفضل القربات، وإنما فسدَ فيها حالُ أكثر الناس لابتغاء الرئاسة أو المال بها فقط). السياسة الشرعية (ص 241).

وقال العلامة أبو عبدالله القلعي الشافعي: (نظام أَمر الدّين وَالدُّنْيَا مَقْصُود، وَلَا يحصل ذَلِك إِلَّا بِإِمَام مَوْجُود، لَو لم نقل بِوُجُوب الْإِمَامَة لَأَدَّى ذَلِك إِلَى دوَام الِاخْتِلَاف والهرج إِلَى يَوْم الْقِيَامَة، لَو لم يكن للنَّاس إِمَام مُطَاع لانثلم شرف الْإِسْلَام وَضاع، لَو لم يكن للْأمة إِمَام قاهر لتعطلت المحاريب والمنابر، وانقطعت السبل للوارد والصادر، لَو خلا عصر من إِمَام لتعطلت فِيهِ الْأَحْكَام وضاعت الْأَيْتَام وَلم يحجّ الْبَيْت الْحَرَام لَوْلَا الْأَئِمَّة والقضاة والسلاطين والولاة لما نكحت الْأَيَامَى وَلَا كفلت الْيَتَامَى لَوْلَا السُّلْطَان لكَانَتْ النَّاس فوضى ولأكل بَعضهم بَعْضًا وَفِي الحَدِيث السُّلْطَان ظلّ الله فِي الأَرْض يأوي إِلَيْهِ كل مظلوم.

وَقَالَ عُثْمَان رَضِي الله عَنهُ: مَا يَزع الله بالسلطان أَكثر مِمَّا يَزع بِالْقُرْآنِ. وَمعنى يَزع؛ أَي: يمْنَع ويكف ويردع.

وَقَالَ بعض القدماء: الدّين وَالسُّلْطَان توأمان وَقيل الدّين أس وَالسُّلْطَان حارس فَمَا لَا أس لَهُ فمهدوم وَمَا لَا حارس لَهُ فضائع). تهذيب الرياسة (ص 94-95).

وحكامنا موجودون معروفون والناس في البلد مجتمعة عليهم، فاللهم لك الحمد.

الإعداد الإيماني سبب للنصر وليس شرطا لصحّة الجهاد

تنبيه مهم: هذا الفصل لولا أن بعض من ينتسب للسلفية تابع الإخوان المفلسين في خلطهم سعيهم للسلطة بجهاد الكفار الحقيقيين؛ لأنهم يكفرّون حكامهم؛ بل ويقدمّون قتالهم على قتال الكفار؛ لما عقدته أصلا، **وسيكون الكلام فيه ببيان الاعتقادات والأحكام الصحيحة في جهاد الكفار الحقيقيين**، فتنبّه!

وقد انقسم الناس في هذا الأمر إلى قسمين:

1- قسم لا يلقي لمسألة الإعداد الإيماني بالا، فالصلاح أو الفساد العقدي والأخلاقي عنده سواء، وهم (أصحاب المنهج الاستعجالي).

2- قسم يغلو في ذلك ويراها شرطا لصحة الجهاد، حتى إنه مستعدٌّ أن ينكر النصوص والوقائع التاريخية الواضحة ويؤولها، وهم (أصحاب المنهج الاستبطائي).

فما الصواب في ذلك، وكيف نجمع بين ما ورد من الأدلة والوقائع القدرية التاريخية جميعها؟!

أقول: اعلم رحمك الله أنك خلقت لغاية عظيمة وهي القيام بالعبودية لله وحده لا شريك، وهاته الغاية من خلق الإنس والجن، وهاته العبودية مقصودة لغاية أخرى وهي دخول الجنة والنجاة من النار، وقد أشبعنا الكلام عن هذا من قبل، فاستحضر هذا ففيه حلّ جميع المشكلات في هذا الباب.

ونبدأ بقولنا: إن الله وضع لحصول كلّ أمر كوني أسبابا لا ينفكّ العاقل عن تحصيلها، ومن أسباب النصر على الأعداء من الكفار والخوارج ومن يباح لولي الأمر وجماعة المسلمين معه قتالهم هو إعداد العدة.

قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾.

والعدّة عدتان:

1- **عدة إيمانية:** وهي صلاح العقائد والأعمال.

2- **عدة مادية:** وهي توفير السلاح والمؤنة الكافية لدحر الأعداء.

والذي يترتب على إعداد العدة هو النصر، والنصر نوعان:

1- نصر إيماني: وهذا النصر نوعان أيضا:

أ- **نصر بالحجة والبيان:** مثل غلبة المبتدع أو الكافر في المناظرة أو الردّ على شبهاتهم ونقضها.

ب- **ونصر بالثبات على الإيمان:** مثل الاستشهاد في سبيل الله، كالموت في الجهاد أو في الدعوة إلى الحقّ.

2- نصر ميداني: وهو الفوز على الكفار في المعركة الذي يعرفه كل أحد، مثلما حدث يوم بدر.

وعند تأمّل هذا التقسيم يلاحظ شيء، وهو أن (النصر بالثبات على الإيمان) داخل في النصر الإيماني والنصر الميداني، وهذا النصر (النصر بالثبات على الإيمان) هو نفسه ما تحدثنا عنه سابقا بقولنا: (القيام بالعبودية حتى الممات).

وهذا النصر لا يتخلّف أبدا ما دمت قائما بالعبودية التي خلقت من أجلها، وأما النوعان الآخران من الثلاثة أنواع؛ فقد يأتيان وقد يتخلّفان لحكمة أرادها الله جلّ وعلا.

وهذا النصر (النصر بالثبات على الإيمان= القيام بالعبودية حتى الممات) هو النصر الحقيقي التام وهو النعمة الحقيقية التامة في هذه الدنيا، وبه تحصل النعمة الحقيقية التامة في الآخرة، وهو دخول الجنة والنجاة من النار.

والنوعان الآخران من الأنواع المذكورة هما نصر مقيّد ونعمة مقيدة، وغايتهما أنهما وسيلة أيضا لتحقيق النصر الحقيقي الذي هو (النصر بالثبات على الإيمان= القيام بالعبودية حتى الممات).

والفرحة الحقيقية التامة تكون (النصر بالثبات على الإيمان= القيام بالعبودية حتى الممات) ، والفرحة بالنوعين الآخرين تكون فرحة مقيدة.

فالنصر الحقيقي التام والنعمة الحقيقية التامة التي تحصل بها الفرحة والسعادة الحقيقية التامة في الدنيا والآخرة هو (أداء الأمر الشرعي)، وليس (حصول الأمر الكوني).

فإذا عرفتَ هذا انحلّت جميع العقد في الباب، وبها فهمت جميع ما ورد في النصوص

على وجه الصواب.

ومما سبق من تأصيلات نبدأ في مناقشة أدلة كلّ طرف:

أدلة الطرف الذي يجفو العدة الإيمانية:

وأدلتهم قسمان:

1- عدم اشتراط العدة الإيمانية للجهاد:

الجهاد مع الإمام برّا كان أو فاجرا ماض إلى يوم القيامة، والفاجر يدخل فيه المبتدع، وعلى هذا أجمع أهل السنة، ولم يخالف في ذلك إلا الرافضة.

وروي عن أبي هريرة مرفوعا: [الجهاد واجب عليكم مع كل أمير برًا كان أو فاجرًا، والصلاة واجبة عليكم خلف كل مسلم برًا كان أو فاجرًا، وإن عمل الكبائر]. رواه أبو داود (2533) وغيره، وهو ضعيف مرسل.

قال الإمام ابن أبي العزّ الحنفي في شرح قول الإمام الطحاوي: (قَوْلُهُ: [وَالْحَجُّ وَالْجِهَادُ مَاضِيَانِ مَعَ أُولِي الْأَمْرِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، بَرِّهِمْ وَفَاجِرِهِمْ، إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، لَا يُبْطِلُهُمَا شَيْءٌ وَلَا يَنْقُضُهُمَا] . ش: يُشِيرُ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى الرَّدِّ عَلَى الرَّافِضَةِ، حَيْثُ قَالُوا: لَا جِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى يَخْرُجَ الرِّضَا مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ، وَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: اتَّبِعُوهُ! وَبُطْلَانُ هَذَا الْقَوْلِ أَظْهَرُ مِنْ أَنْ يُسْتَدَلَّ عَلَيْهِ بِدَلِيلٍ. وَهُمْ شَرَطُوا فِي الْإِمَامِ أَنْ يَكُونَ مَعْصُومًا اشْتِرَاطًا مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ! بَلْ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ، وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ؟ قَالَ: لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ، أَلَا مَنْ وَلِيَ عَلَيْهِ وَالٍ فَرَآهُ يَأْتِي شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَلْيَكْرَهْ مَا يَأْتِي مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَتِهِ»...

وَقَوْلُهُ: [مَعَ أُولِي الْأَمْرِ بَرِّهِمْ وَفَاجِرِهِمْ] لِأَنَّ الْحَجَّ وَالْجِهَادَ فَرْضَانِ يَتَعَلَّقَانِ بِالسَّفَرِ، فَلَا بُدَّ مِنْ سَائِسٍ يَسُوسُ النَّاسَ فِيهِمَا، وَيُقَاوِمُ الْعَدُوَّ، وَهَذَا الْمَعْنَى كَمَا يَحْصُلُ بِالْإِمَامِ الْبَرِّ يَحْصُلُ بِالْإِمَامِ الْفَاجِرِ). شرح العقيدة الطحاوية (2/ 557).

فإذا كان الرأس وهو الإمام لا يشترط للجهاد معه صحة العقيدة ولا صحة الأعمال، فكيف تشترطون علينا صحة العقيدة والأعمال في الرعية التي هي تبعه.

وتاريخيا: جاهد المسلمون مع حكام بررة وحكام فجرة، ولم يقل أحد منهم باشتراط ما تشترطون.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية مبينا أن قتال الخوارج يكون مع الإمام برا كان أو فاجرا، ومع جيش الإمام وإن كان فيه فجرة: (وَقَدِ اتَّفَقَتِ الصَّحَابَةُ عَلَى قِتَالِهِمْ، وَلَا خِلَافَ بَيْنَ عُلَمَاءِ السُّنَّةِ أَنَّهُمْ يُقَاتِلُونَ مَعَ أَئِمَّةِ الْعَدْلِ، مِثْلَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لَكِنْ هَلْ يُقَاتِلُونَ مَعَ أَئِمَّةِ الْجَوْرِ؟ فَنُقِلَ عَنْ مَالِكٍ أَنَّهُمْ لَا يُقَاتِلُونَ، وَكَذَلِكَ قَالَ فِيمَنْ نَقَضَ الْعَهْدَ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ: لَا يُقَاتِلُونَ مَعَ أَئِمَّةِ الْجَوْرِ، وَنُقِلَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ فِي الْكُفَّارِ، وَهَذَا مَنْقُولٌ عَنْ مَالِكٍ وَبَعْضِ أَصْحَابِهِ، وَنُقِلَ عَنْهُ خِلَافُ ذَلِكَ، وَهُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ، وَأَكْثَرُ أَصْحَابِهِ خَالَفُوهُ فِي ذَلِكَ، وَهُوَ مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ، وَقَالُوا: يُغْزَى مَعَ كُلِّ أَمِيرٍ بَرًّا كَانَ أَوْ فَاجِرًا إِذَا كَانَ الْغَزْوُ الَّذِي يَفْعَلُهُ جَائِزًا، فَإِذَا قَاتَلَ الْكُفَّارَ أَوِ الْمُرْتَدِّينَ أَوْ نَاقِضِي الْعَهْدِ أَوِ الْخَوَارِجَ قِتَالًا مَشْرُوعًا قُوتِلَ مَعَهُ، وَإِنْ قَاتَلَ قِتَالًا غَيْرَ جَائِزٍ لَمْ يُقَاتَلْ مَعَهُ، فَيُعَاوَنُ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَلَا يُعَاوَنُ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، كَمَا أَنَّ الرَّجُلَ يُسَافِرُ مَعَ مَنْ يَحُجُّ وَيَعْتَمِرُ، وَإِنْ كَانَ فِي الْقَافِلَةِ مَنْ هُوَ ظَالِمٌ). منهاج السنة النبوية (6/ 116-117).

وقال أيضا ردّا على الرافضة في اشتراطهم الجهاد مع الإمام المعصوم من الذنوب: (وَالْجِهَادُ لَا يَقُومُ بِهِ إِلَّا وُلَاةُ الْأُمُورِ، فَإِنْ لَمْ يَغْزُ مَعَهُمْ، لَزِمَ أَنَّ أَهْلَ الْخَيْرِ الْأَبْرَارَ لَا يُجَاهِدُونَ، فَتَفْتُرُ عَزَمَاتُ أَهْلِ الدِّينِ عَنِ الْجِهَادِ، فَإِمَّا أَنْ يَتَعَطَّلَ، وَإِمَّا أَنْ يَنْفَرِدَ بِهِ الْفُجَّارُ، فَيَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ اسْتِيلَاءُ الْكُفَّارِ، أَوْ ظُهُورُ الْفُجَّارِ، لِأَنَّ الدِّينَ لِمَنْ قَاتَلَ عَلَيْهِ.

وَهَذَا الرَّأْيُ مِنْ أَفْسَدِ الْآرَاءِ، وَهُوَ رَأْيُ أَهْلِ الْبِدَعِ مِنَ الرَّافِضَةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ، حَتَّى قِيلَ لِبَعْضِ شُيُوخِ الرَّافِضَةِ: إِذَا جَاءَ الْكُفَّارُ إِلَى بِلَادِنَا فَقَتَلُوا النُّفُوسَ وَسَبَوُا الْحَرِيمَ وَأَخَذُوا الْأَمْوَالَ، هَلْ نُقَاتِلُهُمْ؟ فَقَالَ: لَا، الْمَذْهَبُ أَنَّا لَا نَغْزُو إِلَّا مَعَ الْمَعْصُومِ، فَقَالَ ذَلِكَ الْمُسْتَفْتِي مَعَ عَامِّيَّتِهِ: وَاللَّهِ إِنَّ هَذَا لَمَذْهَبٌ نَجِسٌ، فَإِنَّ هَذَا الْمَذْهَبَ يُفْضِي إِلَى فَسَادِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا). منهاج السنة النبوية (6/ 118).

2- حصول النصر مع ضعف أو انعدام العدة الإيمانية:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: [شَهِدْنا مع رَسولِ اللَّهِ ﷺ خَيْبَرَ، فقالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ لِرَجُلٍ مِمَّنْ معهُ يَدَّعِي الإسْلامَ: هذا مِن أهْلِ النَّارِ. فَلَمَّا حَضَرَ القِتالُ قاتَلَ الرَّجُلُ مِن أشَدِّ

القِتالِ، وكَثُرَتْ به الجِراحُ فأثْبَتَتْهُ، فَجاءَ رَجُلٌ مِن أصْحابِ النَّبيِّ ﷺ، فقالَ: يا رَسولَ اللَّهِ، أرَأَيْتَ الرَّجُلَ الذي تَحَدَّثْتَ أنَّه مِن أهْلِ النَّارِ؟ قدْ قاتَلَ في سَبيلِ اللَّهِ مِن أشَدِّ القِتالِ، فَكَثُرَتْ به الجِراحُ، فقالَ النَّبيُّ ﷺ: أمَا إنَّه مِن أهْلِ النَّارِ. فَكادَ بَعْضُ المُسْلِمِينَ يَرْتابُ، فَبيْنَما هو علَى ذلكَ إذْ وجَدَ الرَّجُلُ ألَمَ الجِراحِ، فأهْوَى بيَدِهِ إلى كِنانَتِهِ، فانْتَزَعَ مِنْها سَهْمًا، فانْتَحَرَ بها، فاشْتَدَّ رِجالٌ مِنَ المُسْلِمِينَ إلى رَسولِ اللَّهِ ﷺ فقالوا: يا رَسولَ اللَّهِ، صَدَّقَ اللَّهُ حَدِيثَكَ؛ قَدِ انْتَحَرَ فُلانٌ، فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فقالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ: يا بلالُ، قُمْ فأذِّنْ: لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ إلَّا مُؤْمِنٌ، وإنَّ اللَّهَ لَيُؤَيِّدُ هذا الدِّينَ بالرَّجُلِ الفاجِرِ]. أخرجه البخاري (6606)، ومسلم (111).

والفاجر تعمّ الكافر كما قال العلماء.

قال العلامة أبو العباس القرطبي المالكي: (قولُهُ ﷺ: إنَّ اللهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الفَاجِرِ، وهو الكافر؛ كما قال: وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا). المفهم (1/ 320).

قال العلامة المحدث محمد بن علي آدم الإثيوبي: (النبي ﷺ استعان بيهود خيبر، وكذلك قصّة صفوان بن أمية، فإنه شَهِد حُنينًا، والطائف، وهو مشرك، وحديث: [إن الله ليؤيّد هذا الدِّين بالرجل الفاجر]، متّفقٌ عليه، قاله ﷺ في ذلك المنافق الذي نحر نفسه لمّا اشتدّت به الجراحة، والقصّة مشهورة) البحر المحيط الثجاج (31/ 624 بتصرف).

وأما شواهد التاريخ التي تحكي لنا انتصار المسلمين وفي جيوشهم مبتدعة أو فسقة فلا تعدّ ولا تحصى، فمن ذلك:

- انتصار القائد الإسلامي الشهير صلاح الدين الأيوبي (ت 589 هـ) وكان معروفا بميله للأشاعرة والمتصوفة على النصارى وتحريره بيت المقدس من دنسهم ورجسهم، وكان الأئمة من الحنابلة الأثريين يجاهدون معه، قال الحافظ ابن كثير في ترجمة الإمام أبي عمر المقدسي الحنبلي: (وَكَانَ هُوَ وَأَخُوهُ وَابْنُ خَالِهِمُ الْحَافِظُ عَبْدُ الْغَنِيِّ وَأَخُوهُ الشَّيْخُ الْعِمَادُ لَا يَنْقَطِعُونَ عَنْ غَزَاةٍ يَخْرُجُ فِيهَا الْمَلِكُ صَلَاحُ الدِّينِ إِلَى بِلَادِ الْفِرِنْجِ، وَقَدْ حَضَرُوا مَعَهُ فَتْحَ الْقُدْسِ الشَّرِيفِ وَغَيْرِهَا) البداية والنهاية (17/ 21).

- انتصار الدولة العثمانية على النصارى وفتح القسطنطينية على يد القائد محمد خان بن مراد بن محمد العثماني الشهير بالفاتح سنة 857 هـ وتخليصها من شرّ النصارى، وجميع سلاطين الدولة العثمانية صوفية ماتريدية من الغلاة.

- وكذلك استمرت الفتوحات العثمانية للدول المجاورة لها كدول منطقة البلقان حتى

سيطرت سيطرة كاملة على تلك المناطق.

وغيرها من شواهد التاريخ.

فلو كان النصر مرتبطا بصحة العقيدة والأعمال لما حصل من هاته الشواهد التاريخية ما حصل، لذلك لا تغترّ بما يحاول به البعض من تبرئة صلاح الدين من الأشعرية أو الدولة العثمانية من القبورية.

ولو أخذنا بقول من يشترط صحة العقيدة والأعمال للجهاد لما جاهدنا إلى يوم القيامة، وهذا عين ما يعتقده الرافضة، واستمرار الفساد العقدي والعملي في الأمة لا ينكره عاقل، بل ما يأتي عام إلا والذي بعده شرّ منه كما في الوحي!

قال الزبير بن عدي: [أَتَيْنَا أَنَسَ بنَ مَالِكٍ، فَشَكَوْنَا إلَيْهِ ما نَلْقَى مِنَ الحَجَّاجِ، فَقالَ: اصْبِرُوا؛ فإنَّه لا يَأْتي علَيْكُم زَمَانٌ إلَّا الذي بَعْدَهُ شَرٌّ منه، حتَّى تَلْقَوْا رَبَّكُمْ. سَمِعْتُهُ مِن نَبِيِّكُمْ ﷺ]. رواه البخاري (7068).

أدلة الطرف الذي يغلو في العدة الإيمانية:

قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: 47].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: 7].

وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 40].

قال رسول الله ﷺ: [إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه شيء حتى ترجعوا إلى دينكم]. أخرجه أبو داود (3462)، وصححه العلامة الألباني في صحيح أبي داود.

قال عبدالمالك رمضاني: (**كشف مغالطة:** وقف بعض من قرأ حديث ابن عمر عند قول الرسول ﷺ: [وتركتم الجهاد] ليستنتج أن الحلّ لاسترجاع المسلمين عزّهم مكفول بالجهاد، وهذه مغالطة واضحة؛ لأن ذكر ترك الجهاد في الحديث جاء ضمن الأسباب التي تورث الذلّ، إذا فقد ذكر في الأدواء ولم يذكر في الحلول، والرسول ﷺ ذكر في الحلول حلّا واحدا شاملا، فقال: [حتّى ترجعوا إلى دينكم]). السبيل إلى العز والتمكين (ص 101-102).

وقال ﷺ: [وجُعِلَتِ الذِّلَّةُ والصَّغَارُ على مَن خالفَ أمري]. رواه البخاري تعليقا قبل

(2914)، رواه أحمد (5667)، وحسنه بعض أهل العلم.

وقال الإمام البخاري في صحيحه: (بَاب عَمَلٌ صَالِحٌ قَبْلَ الْقِتَالِ. وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: إِنَّمَا تُقَاتِلُونَ بِأَعْمَالِكُمْ)، قال الحافظ ابن حجر: (هَذِهِ الطَّرِيقَ مُنْقَطِعَةٌ بَيْنَ رَبِيعَةَ، وَأَبِي الدَّرْدَاءِ) فتح الباري (6/ 24).

وقال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله: [لا تغزو مع القدرية، فإنهم لا ينصرون]. رواه ابن بطة في الإبانة (1848).

وغيرها من الأدلة.

ومن الأدلة أيضا على تعجيل الهزيمة لمخالفي الرسل:

قصة غزوة أحد: وذلك لسببين:

1- أخذهم الفداء يوم بدر: قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: [لما كان يوم أحد من العام المقبل، عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء، فقتل منهم سبعون وفر أصحاب رسول الله ﷺ عنه، وكسرت رباعيته وهشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، فأنزل الله عز وجل: ﴿أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم﴾ بأخذكم الفداء]. رواه بن أبي شيبة وابن أبي حاتم، وهو صحيح.

2- مخالفة الرماة أمر النبي ﷺ حينما أمرهم أن لا يغادروا أماكنهم. رواه البخاري.

قال عبدالمالك رمضاني: (لكن تأملوا هذا الموضع؛ فإن فيه ذكرى للمتساهلين في أمر الاستقامة، الغافلين عن الذنوب وآثارها، المستعجلين إلى الجهاد والعورات بادية، الطامعين في الظفر والأعمال نابية، فتأملوا هذه القصة البالغة المبلغ العظيم في العظة: كانت بدايتها معصية في فداء الأسارى، أورثت معصية في مفارقة جبل أحد، نتج عن ذلك كله العقوبة في غزوة أحد). السبيل إلى العزّ والتمكين (ص 43).

والله سبحانه وتعالى بيّن لنا أن سبب ما أصاب المسلمين يوم أحد هو بسبب ما عملوه، قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. [آل عمران: 165].

ومن الأدلة العملية على اشتراط العلماء صلاح العقيدة من أجل النصر:

ـ قصة شيخ الإسلام ابن تيمية في جهاده مع التتار، والتي يحكيها لنا بقوله عن الذين يستغيثون بغير الله تعالى: (إن العدو الخارج عن شريعة الإسلام لما قدم دمشق خرجوا يستغيثون بالموتى عند القبور التي يرجون عندها كشف ضرهم، وقال بعض الشعراء:

يا خائفين من التتر ... لوذوا بقبر أبي عمر

أو قال:

عوذوا بقبر أبي عمر ... ينجيكم من الضرر

فقلت لهم: هؤلاء الذين تستغيثون بهم لو كانوا معكم في القتال لانهزموا، كما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد، فإنه كان قد قضى أن العسكر ينكسر لأسباب اقتضت ذلك، ولحكمة كانت لله عز وجل في ذلك، ولهذا كان أهل المعرفة بالدين والمكاشفة لم يقاتلوا في تلك المرة لعدم القتال الشرعي؛ الذي أمر الله به ورسوله، ولما يحصل في ذلك من الشر والفساد وانتفاء النصرة المطلوبة في القتال، فلا يكون فيه ثواب الدنيا ولا ثواب الآخرة؛ لمن عرف هذا وهذا، وإن كان كثيراً من المقاتلين الذين اعتقدوا هذا قتالاً شرعياً أجروا على نياتهم.

فلما كان بعد ذلك جعلنا نأمر الناس بإخلاص الدين لله والاستغاثة به، وأنهم لا يستغيثون إلا إياه، لا يستغيثون بملك مقرّب ولا نبي مرسل، كما قال تعالى يوم بدر: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]، ورُوي أن رسول الله ﷺ كان يوم بدر يقول: [يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت برحمتك أستغيث]، وفي لفظ: [أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا إلى أحد من خلقك].

فلما أصلح الناس [أمورهم]، وصدقوا في الاستغاثة بربهم؛ نصرهم على عدوهم نصراً عزيزاً؛ لم يتقدم نظيره، ولم تهزم التتار مثل هذه الهزيمة قبل ذلك أصلاً، لما صح من تحقيق توحيده طاعه رسوله ما لم يكن قبل ذلك، فإن الله ينصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد). كتاب الاستغاثة في الرد على البكري (ص 412-414).

قال عبدالمالك رمضاني: (فهل يعقل أن ينتصر المسلمون اليوم وفيهم بدع وشركيات وتصوف وتجهم ورفض ومخالفات للسنة واضحة وشره شهواني نتن وأخلاق سافلة وبلاء عظيم؟!)السبيل إلى العزّ والتمكين (ص 53).

وقال أيضا: (لا تمكين في الأرض حتى يتمكن الدين الصحيح من النفوس، ومصداقه في كتاب الله قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾). السبيل إلى العز والتمكين (ص 56).

فهاته الأدلة وما في معناها برأسها أو تعاضدها تجعلنا نجزم يقينا باشتراط صحة المعتقد وصلاح الأعمال لتحصيل النصر في الجهاد، ودعك من حكاية صلاح الدين الأيوبي أو محمد الفاتح أو غيرهما، فهذا الكتاب والسنة فلا حجة بفلان ولا لفلان.

كما أن ما تحسبه انتصارات هو في الحقيقة استدراج!

قال عبدالمالك رمضاني: (قد ينصر الله بعض الناس استدراجا لهم إلى أسوأ الخواتيم بسبب ما فيهم من عدوان وفعل أثيم... ثم ذكر حديث الاستدارج لفاعل المعاصي). السبيل إلى العز والتمكين (ص 59).

ثم قال: (وفي الجملة؛ فالضابط في ذلك يرجع إلى حال المنتصر، فإذا كان صالحا وسلك الطريق الصحيح الموافق للسنة كان ظفره نصرا حقيقيا، وإذا كان غير صالح أو كان في طريقه إلى الظفر مخالفا للسنة كان ظفره وبالا عليه يوم القيامة). السبيل إلى العز والتمكين (ص 62).

فما الصواب من القولين؟

الجواب: إن الله تعالى أمرنا في حرب الكفار بشيئين:

1- **باتخاذ العدّة عند لقاء العدو:** قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾. والعدّة المذكورة في الآية الكريمة جاء تفسيرها واضحا في الحديث؛ فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: [سَمِعْتُ رَسولَ ﷺ وَهو علَى المِنْبَرِ يقولُ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: 60]، أَلَا إنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ]. رواه مسلم (1917).

فالعدة في الآية الكريمة المقصود بها السلاح الذي يكفل للمسلمين كسر عدوّهم، وهل العدة الإيمانية داخلة في ذلك؟ هذا سيأتي بإذن الله.

2- **بالثبات عند اللقاء وعدم الفرار من الزحف:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: 16].

وقال نبينا ﷺ: [يا أيها الناس! لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف]. رواه البخاري (٢٨١٨) مسلم (١٧٤٢).

وعدّت الشريعة الإسلامية عدم الثبات عند اللقاء والتولي يوم الزحف من الكبائر الموبقات، قال ﷺ: [اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقاتِ، قالوا: يا رَسولَ اللَّهِ وما هُنَّ؟ قالَ: الشِّرْكُ باللَّهِ، والسِّحْرُ، وقَتْلُ النَّفْسِ الَّتي حَرَّمَ اللَّهُ إلَّا بالحَقِّ، وأَكْلُ الرِّبا، وأَكْلُ مالِ اليَتِيمِ، والتَّوَلِّي يَومَ الزَّحْفِ، وقَذْفُ المُحْصَناتِ المُؤْمِناتِ الغافِلاتِ]. رواه البخاري (2766)، ومسلم (89).

وتأمّلْ في قول الإمام ابن أبي العزّ الحنفي في شرح قول الإمام الطحاوي: وَقَوْلُهُ: [مَعَ أُولِي الْأَمْرِ بَرِّهِمْ وَفَاجِرِهِمْ] لِأَنَّ الْحَجَّ وَالْجِهَادَ فَرْضَانِ يَتَعَلَّقَانِ بِالسَّفَرِ، فَلَا بُدَّ مِنْ سَائِسٍ يَسُوسُ النَّاسَ فِيهِمَا، وَيُقَاوِمُ الْعَدُوَّ، وَهَذَا الْمَعْنَى كَمَا يَحْصُلُ بِالْإِمَامِ الْبَرِّ يَحْصُلُ بِالْإِمَامِ الْفَاجِرِ). شرح العقيدة الطحاوية (2/ 557). سترى أنّ من مقاصد اشتراط الجهاد أن يكون تحت راية وليّ الأمر هو تحصيل النظام بين الجيش الذي يثمر الثبات عند اللقاء، ولا حصول للنظام في الجيش عند الجهاد أو الرعية في السلم إلا بولي الأمر.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: [لا يصلح الناس إلا أمير بر أو فاجر، قالوا: يا أمير المؤمنين هذا البر فكيف بالفاجر؟ قال: إن الفاجر يؤمن الله عز وجلّ به السبل، ويجاهد به العدو، ويجيء به الفيء، وتقام به الحدود، ويحج به البيت، ويعبد الله فيه المسلم آمنا حتى يأتيه أجله]. رواه البيهقي في شعب الإيمان (٧١٠٢)، ورواه ابن أبي شيبة في المصنف (٤٠٧٤٢) بمعناه.

وهذان الأمر (إعداد العدة المادية، والثبات عند اللقاء وعدم التولي) هما في الحقيقة أسباب واقعية لمواجهة أي عدوّ، فالعدو أيضا سواء كان كافرا أو ممن يحلّ قتاله من المسلمين سيكون أيضا فاعلا لنفس الأمر حتى يظفر بالنصر، فالأمران هنا من باب مواجهة الواقع بالواقع.

فمن حقّق هذين الأمرين أكثر من الطرف الآخر حقّق النصر.

لكن سبق أن عرفت أن النصر ليس مرادا لذاته، بل هو لإقامة العبودية، وأن العبودية قبل الجهاد وأثناء الجهاد وبعد الجهاد وفي السلم وفي أي وقت وحين.

ويجب أن تعلم أن إقامة الجهاد من العبودية، وليست العبودية للنصر في الجهاد.

وأن الجهاد من صلاحيات ولي الأمر، هو من يعلن الدخول فيه من عدمه، وأن طاعته في ذلك من إقامة العبودية، فطاعة ولي الأمر من العبودية.

وأن الإنسان مطالب بأداء الأمر الشرعي وهو الجهاد مع ولي الأمر، وليس مطالبا بحصول الأمر الكوني وهو حصول النصر في الجهاد.

علمت أن الأصل أنه يجب عليك أن تجاهد مع وليّ الأمر إذا أمرك بالجهاد ولا تحتجّ باحتمال وقوع النصر أو الهزيمة.

قال ﷺ: [وإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا]. رواه مسلم (1864).

وخير دليل على هذا أن الصحابة رضي الله عنهم استجابوا لاستنفار النبي ﷺ إياهم يوم أحد وغيرها من المعارك لأن قصدهم هو القيام بالعبودية بالجهاد وبطاعة ولي أمرهم ﷺ في ذلك.

ولم يلتفت أحد منهم لوقوع الهزيمة أو النصر؛ لأنهم يعلمون أنهم مطالبون بالأمر الشرعي وليسوا مطالبين بحصول الأمر الكوني.

وأما مكانة صلاح العقائد والأعمال فهي مطلوبة في كل وقت وحين، ولا بأس بتأكيدها عند الجهاد؛ فأكثر الناس ثباتا أعظمهم إيمانا.

ولكن فساد العقائد والأعمال لا يمنع من النصر إذا حقّق المسلمون الشرطين السابقين (إعداد العدة، الثبات عند اللقاء).

فقد ينصر الله سبحانه وتعالى من كان في جيشه فساد عقدي وعملي **لحكمة أرادها**، وقد يدخل بسبب هذا النصر في دين الله أفواج لولاه لما أسلموا، وإن كان الدين الذي دخلوا فيه هو من جنس من فتح الله البلاد على أيديهم، كالصوفية والأشعرية الذين فتحوا بعض بلدان المسلمين فانتشرت بسببهم تلك المذاهب، فكان فيهم -أي: هؤلاء الذين فتحت بلدانهم- إسلام مع بدعة، وهو خير من بقائهم على الكفر، ولذلك جاهد الصالحون من

العلماء مع أولئك الحكام وإن خالفوهم في المعتقد؛ لأن مصلحة انتصار الإسلام مع وجود بعض البدع خير من بقاء الكفر حاكما.

كما أنه سبحانه قدّر ما قدّر يوم أحد **لحكمة أرادها** مع أن أولئك النفر خير المسلمين على الإطلاق، فهم صحابة رسول الله ﷺ، وهو معهم ﷺ، ومع ذلك استشهد منهم سبعون رجلا، وهو اصطفاء من الله عزّ وجلّ لهم يعدّ عند رب العالمين خيرا من آلاف ما حصل للأمة من نصر وفتوحات.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:166].

وقال تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران:140].

فوصف انتصارات الأولين بأنها (استدراج) فيه ظلم وتعدٍ، وإذا كانت لا تخلو بلد من صالح وطالح، فكذلك جيوش المسلمين عبر التاريخ لا تخلو من صالح وطالح، وقد جاهد مع جيش صلاح الدين الأيوبي جماعة من خيار العلماء الذين أجمعت الأمة على فضلهم ممن سبق ذكرهم من المقادسة الحنابلة.

كما أن وصف ما وقع في غزوة أحد أنه فقط بأنه بسبب مخالفة بعض الصحابة رضي الله عنهم لأوامر الله ورسوله ﷺ فيه ظلم وتعدٍّ، ولا يعضده ظاهر قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾. [آل عمران: 165]؛ لأنّ ظاهرها هذا معارض بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:166]. وقوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [آل عمران:140]، ونصوص أخرى سيأتي ذكر بعضها، والواجب الجمع بين النصوص، لا أخذ بعضها وترك البعض الآخر.

وليتأمّل المسلم في قوله تعالى: ﴿منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين﴾ [آل عمران:152]، كيف أثبت الآية أن الجمع يوم أحد رضي الله عنهم كانوا صنفين ولم يكونوا صنفا واحدا فيعاقبهم الله تعالى جميعا ويكونون مستحقّين له جميعا، ثمّ ثنّت بأن ما حدث يومها كان ابتلاء، ونعم الابتلاء من ربّ حكيم، ثم ختمت بالعفو عن الجميع وهو العفوّ الغفور.

ثمّ شدّ الله تعالى من أزرهم على رغم ما أصابهم وبين لهم أنه أحبابه وأولياؤه؛ فقال: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ [آل عمران:139].

والحاصل: أن ما حصل يوم أحد كان لبعضهم عقوبة عاجلة هي تطهير لأوليائه، ولبعضهم ذكرى وموعظة، ولبعضهم اصطفاء بنيل الشهادة، ولبعضهم فضيحة وهم الذين قال تعالى فيهم: ﴿وليعلم الذين نافقوا﴾ [آل عمران:167] وهؤلاء لم يشتركوا أصلا في المعركة ورجعوا في أثناء الطريق، وكانت أيضا كما قال تعالى: ﴿وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾ [آل عمران:141]، وحكم أخرى الله أعلم بها.

وكلا الطائفتين من المسلمين؛ سواء الذين انتصروا في معاركهم وفتوحاتهم ممن شاب صلاح عقائدهم وأعمالهم شوبٌ؛ أو تلك الطائفة الطاهرة التي حصل لها ما حصل يوم أحد؛ سلكوا سبيل العبودية بالجهاد مع ولاة أمورهم، و﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة:91].

فالمسلم مطالب بالقيام بالأمر الشرعي، وليس مطالبا بحصول الأمر الكوني.

واستكمالا لما سبق: سبق أن قلنا إن أعظم الناس ثباتا عند اللقاء هم أهل الإيمان والتقوى، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: 7]. وقال تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

قال الإمام ابن قيم الجوزية: (آيةٍ من كتاب الله تعالى، جمع فيها تدبير الحروب بأحسن تدبير، وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦)﴾ [الأنفال: ٤٥ - ٤٦].

فأمر المجاهدين فيها بخمسة أشياء، ما اجتمعت في فئةٍ قطُّ إلَّا نُصِرَت، وإن قلَّت وكثُرَ عدوُّها.

أحدها: الثبات.

الثاني: كثرة ذِكْره تعالى.

الثالث: طاعته وطاعة رسوله.

الرابع: اتِّفاق الكلمة، وعدم التنازع الذي يوجِب الفَشَل والوَهَن، وهو جُندٌ يقوِّي به المتنازعون عدوَّهُم عليهم؛ فإنهم في اجتماعهم كالحِزْمَة من السِّهام، لا يستطيع أحدٌ كسرها، فإذا فرَّقها وصار كلٌّ منهم وحده؛ كسرها كلها.

الخامس: مِلاك ذلك كله وقوامه وأساسه، وهو الصبر.

فهذه خمسة أشياء تُبْتَنى عليها قُبَّة النَّصْر، ومتى زالت أو بعضها؛ زال من النصر بحسب ما نقص منها، وإذا اجتمعت، قوَّى بعضُها بعضًا، وصار لها أثرٌ عظيمٌ في النصر، ولما اجتمعت في الصحابة لم تقمْ لهم أَمَّةٌ من الأمم، وفتحوا الدُّنيا، ودانت لهم العباد والبلاد، ولما تفرَّقت فيمن بعدهم وضَعُفت؛ آل الأمرُ إلى ما آل). الفروسية (ص 472-473).

ولكن قد يمنح الله أهل البدع والضلال وحتى الكفار ثباتا وصبرا عظيما واتّفاق كلمة يجعلهم يهزمون به عدوهم، وقد سبق ذكر بعض الأمثلة في ذلك، وهذه بعض دول الكفر مثل فيتنام استطاعوا هزيمة عدوّين كافرين مثلهم هما فرنسا وأمريكا على التوالي لقوة ثباتهم وشدة بأسهم.

والحاصل أن نصرة الله سبب لحصول النصر لا شرط في صحة الجهاد.

وأما الأجوبة عن أدلة أهل الاستبطاء فأقول:

هل تعلم ما معنى نصر المؤمنين لربهم حتى ينصرهم في هاته الآيات؟

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: 7].

وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 40].

الجواب: إنه القيام بالعبودية لله رب العالمين، الغاية التي خلقوا من أجلها، ومن القيام بالعبودية: (الجهاد مع ولي الأمر إذا أمرك بذلك؛ لأن طاعته في ذلك من العبودية)!

وبعبارة سهلة مواكبة للواقع: الجهاد مع حكامنا الحاليين الذين يسعى الإخوان المفلسون لإسقاطهم والجلوس مكانهم، ولذلك سرقوا عبادة الجهاد التي من صلاحيتهم منهم وقلبوها ضدّهم.

والدليل على أن الجهاد مع وليّ الأمر هو من ضمن نصرة المؤمنين لربهم هو الحديث المذكور من قبل: قال رسول الله ﷺ: [إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه شيء حتى ترجعوا إلى دينكم]. أخرجه أبو داود (3462)، وصححه العلامة الألباني في صحيح أبي داود.

الدين المذكور في الحديث هو القيام بالعبودية بشرطيها (الإخلاص، والمتابعة)، ومن

العبودية التي ترفع الذلّ عن المسلمين هو الجهاد مع وليّ الأمر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فمن تَركَ الجهادَ عذَّبه الله عذابًا أليمًا بالذُّلّ وغيره، ونَزَعَ الأمرَ منه فأعطاه لغيره، فإن هذا الدين لمن ذَبَّ عنه.

وفي الحديث عن النبي ﷺ: [عليكم بالجهاد، فإنه بابٌ من أبواب الجنة، يُذهِب الله به عن النفوس الهمَّ والغمَّ]. وقال ﷺ: [لن يُغلَب اثنا عشر ألفًا من قلَّةٍ وقتالٍ، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العُسْر يُسرًا].

ومتى جاهدت الأمَّةُ عدوَّها ألَّف الله بين قلوبها، وإن تركتِ الجهادَ شغَلَ بعضَها ببعض). جامع المسائل (5/ 300).

وقال شيخ الإسلام أيضا: (إن التهلكة والهلاك لا يكون إلا بترك ما أمر الله به أو فِعْل ما نَهَى الله عنه. فإذا ترك العباد الذي أُمِرُوا به، واشتغلوا عنه بما يصدّهم عنه من عِمَارة الدنيا، هلكوا في دنياهم بالذلّ وقَهْرِ العدو لهم، واستيلائه على نفوسهم وذراريهم وأموالهم، وردِّه لهم عن دينهم، وعجْزِهم حينئذ عن العمل بالدِّين. بل وعن عِمَارة الدنيا وفُتور هممهم عن الدين، بل وفساد عقائدهم فيه. قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. [البقرة: ٢١٧]. إلى غير ذلك من المفاسد الموجودة في كلّ أمة لا تقاتل عدوها سواء كانت مسلمة أو كافرة.

فإن كل أمة لا تقاتل فإنها تهلك هلاكًا عظيمًا باستيلاء العدو عليها وتَسَلُّطه على النفوس والأموال. وترك الجهاد يوجب الهلاك في الدنيا كما يُشاهده الناس، وأما في الآخرة فلهم عذاب النار). جامع المسائل (5/ 327).

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي: (من أعظم ما حصل به الذل من مخالفة أمر الرسول ﷺ ترك ما كان عليه من مجاهدة أعداء الله؛ فمن سلك سبيل الرسول ﷺ في الجهاد عزّ، ومن ترك الجهاد مع قدرته عليه ذلّ.

وقد سبق حديث: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ وَتَبَعْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ مِنْ رِقَابِكُمْ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ»، ورأى النبي ﷺ سكة الحرث فَقَالَ: "ما دخلت دار قوم إلا دخلها الذل" فمن ترك ما كان عليه النبي ﷺ من الجهاد مع قدرته واشتغل عنه بتحصيل الدُّنْيَا من وجوهها المباحة حصل له من الذل [ما حصل]،

فكيف إذا اشتغل عن الجهاد بجمع الدُّنْيَا من وجوهها المحرمة؟!). الحكم الجديرة بالإذاعة (ص 40).

وقال العلامة المجتهد الأمير الصنعاني: (قوله: (وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً) [يعني]: إذا ترك قوم الجهاد فتح الله عليهم باب ذلة، فلا يغلقه حتى يراجعوا ما تركوه؛ كما في قوله هنا (لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم) جعل الجهاد من الدين، وأن الذلّة لازمة لمن تركه). التنوير شرح الجامع الصغير (1/ 617).

وقال العلامة المحدث بدر الدين الفيومي الشافعي (ت ٨٧٠ هـ): (قال ابن النحاس عفا الله عنه: معنى الحديث: أن الناس إذا تركوا الجهاد وأقبلوا على الزرع ونحوه تسلط عليهم العدو، ولعدم تأهبهم له واعتدادهم لنزوله ورضاهم بما هم فيه من الأسباب، فأولاهم ذلّا وهوانا لا يتخلّصون منه حتى يرجعوا إلى ما هو واجب عليهم، من جهاد الكفار والإغلاظ عليهم، وإقامة الدين، ونصرة الإسلام وأهله، وإعلاء كلمة الله وإذلال الكفر وأهله، واستدل بقوله ﷺ: [حتى ترجعوا إلى دينكم] على أن ترك الجهاد والإعراض عنه والسكون إلى الدنيا خروج من الدين وكفى به ذنبا وإثما مبينا، والله أعلم]. فتح القريب المجيب على الترغيب والترهيب (6/ 684).

وقال العلامة المحدث شرف الحق العظيم آبادي: (وَسَبَبُ هَذَا الذُّلِّ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّهُمْ لَمَّا تَرَكُوا الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِي فِيهِ عِزُّ الْإِسْلَامِ وَإِظْهَارُهُ عَلَى كُلِّ دِينٍ عَامَلَهُمُ اللَّهُ بِنَقِيضِهِ وَهُوَ إِنْزَالُ الذِّلَّةِ بِهِمْ فَصَارُوا يَمْشُونَ خَلْفَ أَذْنَابِ الْبَقَرِ بَعْدَ أَنْ كَانُوا يَرْكَبُونَ عَلَى ظُهُورِ الْخَيْلِ الَّتِي هِيَ أَعَزُّ مَكَانٍ) عون المعبود (9/ 242. مع حاشية ابن القيم).

وأما فهم صاحب كتاب "السبيل إلى العز والتمكين" الذي ذكرناه من قبل لحديث [حتى ترجعوا إلى دينكم]، فهو فضلا عن كونه من كيسه الذي خالف فيه فهوم الفحول من قبله، فهو ناتج عن ردّة فعل استبطائية على أصحاب الاستعجال.

وسبب المشكلة أن الإخوان المفلسين لمّا سرقوا الجهاد من ولي الأمر وقلبوه ضده ورأوا أنه لا رفع للذل إلا بجهاد هؤلاء الحكام، قابلهم الآخرون فقالوا: لا جهاد حتى نرفع الذلّ عنا، فحصر الفريقان مفهوم الجهاد في مصاولة الحكام على السلطة! ثم اختلفوا بعدها!

والله سبحانه وتعالى أمرنا أن نجاهد مع ولاة أمورنا إذا أمرونا بالجهاد وهو (القيام بالأمر الشرعي) وتكفّل لنا بذلك برفع الذل عنا وهو (حصول الأمر الكوني).

قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: 47].

فالردّ على أهل الاستعجال يكون بأن صلاح العقائد والأعمال يكون مطلوبا في كلّ وقت وحين، قبل الجهاد وأثناء الجهاد وبعد الجهاد وفي السلم ومع النصر ومع الهزيمة وفي كلّ زمان ومكان.

والردّ على أهل الاستبطاء يكون بأن صلاح العقائد والأعمال يدخل فيه الجهاد مع ولي الأمر إذا أمرك بذلك، والنصر على الأعداء في حدّ ذاته هو وسيلة لإصلاح العقائد والأعمال، وليس وسيلة للنصر على الأعداء؛ لأن الوسيلة تنتهي بحصول الغاية.

وصلاح العقائد والأعمال هو (القيام بالعبودية).

وأما قصة جهاد شيخ الإسلام ابن تيمية ضد التتار، فاستدلال من استدلّ بها على صحة مذهب الاستبطاء فسيكون الردّ عليه بقولنا:

1- **فائدة:** أن هذا الجهاد كان ضدّ الكفّار، فلا حجة فيه للإخوان المفلسين في منافستهم للحكام على السلطة، وأنّى يستوي الجهاد الشرعي والتنازع على السلطة؟!

2- **قاعدة:** أنه عند التنازع يقدّم أمر الله وأمر رسوله وما أجمع عليه المسلمون، وما خالفها من ذوق أو كشف ولو أصاب في بعض الحالات فلا يعوّل عليه؛ لأن حالة العبودية مقدمة على الحالات والخطرات.

وأقصد بهذا التعليق على قول شيخ الإسلام: (ولهذا كان أهل المعرفة بالدين والمكاشفة لم يقاتلوا في تلك المرة لعدم القتال الشرعي؛ الذي أمر الله به ورسوله، ولما يحصل في ذلك من الشر والفساد وانتفاء النصرة المطلوبة في القتال، فلا يكون فيه ثواب الدنيا ولا ثواب الآخرة؛ لمن عرف هذا وهذا).

فإن القتال الذي أمر الله به ورسوله مقيد بطاعة ولي الأمر في ذلك، وهو العبودية المقدمة على المكاشفة ونحوها، وقد سبق نقل كلام العلماء في ذلك، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية، فلا حجة في الكلام على ترك ذلك.

وقد علمت أن الواجب على المسلم أداء الواجب الشرعي (الجهاد مع ولي الأمر إذا أمرك بذلك)، وليس حصول الأمر الكوني (النصر).

ولو فتح هذا الباب لأصبح لكلّ واحد لا يستجيب لاستنفار وليّ الأمر إياه للجهاد أن يقول: لقد كشف لي عن الهزيمة! وقد ألهمني الله ذلك! وهذا فيه من الفساد العريض ما

فيه.

3- **قاعدة:** أن الجهاد مع ولي الأمر برّا كان أو فاجر أصل عظيم خالفوا به أهل البدع، فلا يعارض بقضايا الأعيان مثل قصة شيخ الإسلام ابن تيمية في جهاد التتار، وإنما يتمّ تخريجها على أصول وضوابط الشرع إن كان لها محمل، وإلا عُدَّت اجتهادا خاطئا لا يتابع عليه.

وقد قال شيخ الإسلام عن الذين جاهدوا التتار أولا قبل: (لعدم القتال الشرعي؛ الذي أمر الله به ورسوله... وإن كان كثيراً من المقاتلين الذين اعتقدوا هذا قتالاً شرعياً أجروا على نياتهم).

وقوله هنا يحتمل:

1- أن جهاد هؤلاء جهاد بدعي أو محرّم، أو هم مجتهدون فيه أخطأوا فقط، فإن كان بدعيا أو محرّما فتقييده بعدم حصول النصر يقضي ببدعية أو تحريم كثير من غزوات المسلمين التي لم ينتصروا فيها، فإن كان هذا هو المقصود؛ فهذا اجتهاد خطأ لا يجوز متابعة شيخ الإسلام ابن تيمية فيه.

2- كما يحتمل أن جهادهم كان من دون وليّ أمر، وهذا ممكن؛ لأنه جهاد دفع لعدوّ هجم غرّة، فالأمر هنا واسع؛ لذلك أثبت لهم الأجر إن صلحت نياتهم، ويكون التخلّف عنه مقبولا.

3- ويحتمل أن يكون مع وليّ الأمر؛ فيكون تخلّف من تخلّف عنه بحجّة أو بأخرى غير مقبول لوجوب طاعة ولاة الأمور فيما يرونه من أمور الأمن والخوف.

قلت: الحادثة المقصودة في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية هي المعركة الشهيرة "معركة شقحب"، وسببها أن المغول بقيادة محمود قازان هجموا على الشام قاصدين مصر بعده، وكانت سنة 702 هـ، وهي حادثة تاريخية معروفة، وكانت تحت راية ولي الأمور في أولها وآخرها، فقد اكنت بلاد الشام وقتها تابعة لسلطان المماليك في مصر بقيادة السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وكانت البداية فيها بتقدم المغول على جيش المماليك في الشام بقيادة الأمير بيبرس الجاشنكير، وذلك قبل أن تنقلب الأمور لصالح المماليك بعد وصول الإمدادات من جيش المماليك في مصر بقيادة الناصر محمد بن قلاوون، ذكر تفاصيلها الحافظ المؤرخ ابن كثير الدمشقي في كتابه "البداية النهاية" (18/ 22 وما بعدها) وغيره.

فتبين أن جهادهم هنا سليم كله من الجهة الشرعية بكونه جهاد دفع تحت راية ولاة أمورهم، وبها يتبين أن وصف شيخ الإسلام ابن تيمية له بالقتال غير الشرعي منحصر في كونه لم يحقق شروط النصر، وهذا الوجه سبق الجواب عنه، وسيأتي مزيد بيان عنه.

4- قاعدة: أن الأصل في إعلان الجهاد والدخول فيه من خصائص وليّ الأمر ولا يجوز لأحد مخالفته في ذلك إلا عند تحقّق الضرر الذي لا يشكّ فيه أحد، وهنا لا ينفع الكشف أو الذوق أو الخطرات، وإنما يرجع إلى الواقع المحسوس الذي لا ينكره أحد.

قال الإمام المبجّل أحمد بن حنبل مبينا أنه لا يشرع الجهاد مع وليّ الأمر إن كان شخصا معروفا بالهزيمة وتضييع المسلمين: (لا يعجبني أن يخرج مع القائد أو الإمام إذا عرف بالهزيمة وتضييع المسلمين، وإنّما يغزو مع من له شفقة وحيطة على المسلمين). المغني لابن قدامة (13/ 14).

وهذا ما يمكن به تفسير كلام شيخ الإسلام ابن تيمية حينما قال: (ولما يحصل في ذلك من الشر والفساد وانتفاء النصرة المطلوبة في القتال).

5- احتمال: أن الكلام عن وقوع القوم في الشرك، ووقوعهم في الشرك يجعل الجهاد معهم محرّما، فهم لا يختلفون عن العدوّ الغازي، وهذا احتمال بعيد؛ لأن تكفير القوم بوقوعهم في الشرك لم ينصّ عليه شيخ الإسلام، وإنما علّل عدم الجهاد معهم بعدم النصرة وهو أمر قدري، كما أن الجهاد جهاد دفع قد يغتفر فيه أحيانا ما لا يغتفر في جهاد الطلب، فتعليق عدم الجهاد معهم بعدم النصرة أصوب وأقرب للمقام، خاصة مع نصّ شيخ الإسلام ابن تيمية على ذلك حينما قال: (وانتفاء النصرة المطلوبة في القتال)، وإنما كان الشرك سببا لعدم النصرة، فلو ثبت عدم النصرة بما هو أقلّ من الشرك لكان الأمر مشابها.

والحاصل: أن هاته القصة حادثة عين وما حصل فيها اجتهاد، فإن وافق ما أحاط بها من قرائن صحيحة صريحة حادثة أخرى مثلها جاز لصاحبها أن يفعل مثلما فعلوا، وإلا فالأصل التمسك بالأصول السلفية التي أجمعت عليها الأمة الإسلامية، ولا يجوز أن تتخذ القصص شرعا متّبعا، والله أعلم.

الصحابة والسلف رضي الله عنهم أرادوا بعملهم الله والدار الآخرة فآتاهم الله الدنيا والآخرة

قيام العبد بالغاية (العبودية) من أجل غاية الغاية (دخول الجنة والنجاة من النار) هو

سبب السعادة في الدنيا والآخرة، وبه تحصيل النعم العاجلة في الدنيا قبل الآخرة، والنصر على الأعداء واحدة من هذه النعم؛ لأن هاته النعم العاجلة ليست هي أكبر همّ العبد ولا مبلغ علمه؛ بل ما هي في نظره إلا وسيلة للغاية من أجل غاية الغاية.

الغاية من مشروعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والرد على المخالف والجرح والتعديل

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (القائمون بحفظ العلم الموروث عن رسول الله الربان، الحافظون له من الزيادة والنقصان، هم من أعظم أولياء الله المتقين وحزبه المفلحين، بل لهم مزية على غيرهم من أهل الإيمان والأعمال الصالحات). مجموع الفتاوى (1/ 11.ط الوفاء).

أنواع التمكين وأقسام الناس فيه ومفهوم كل طائفة فيه وسبلهم في ذلك

أنواعه: للتمكين نوعان عرفا بالاستقراء من كلام منظري جماعة الإخوان المفلسين، وهما:

1- التمكين بتحكيم الشريعة في بلدان المسلمين.

2- التمكين بالانتصار على الكفار.

أقسام الناس فيه:

1- من يفرّق بين نوعي التمكين، وهم أهل السنة السلفيون.

2- من يعتبر النوعين نوعا واحدا، وهم الإخوان المفلسون ومن تفرّع من جماعتهم، مثل السرورية، وذلك أنهم يكفّرون الحكام.

تعريفه: مما سبق تعرف أن تعريف التمكين يختلف باختلاف الطائفة، فنقول:

1- عند من يفرّق بين نوعي التمكين: هو انتشار الحقّ وانتصار أهله، وهو غاية التمكين.

2- عند من يعتبر النوعين نوعا واحدا: هو الوصول للسلطة، وهو مجرّد التمكين.

سبله:

السبل الشرعية، وهي سبل من يفرّق بين النوعين: وسيأتي الكلام عنها.

السبل البدعية، وهي سبل من يعتبر النوعين نوعا واحدا: له سبيلان، هما (منهج الاستعجال، ومنهج الاستبطاء).

مفرداته عند من يعتبر النوعين نوعا واحدا: مشروع النهضة، المشروع الإسلامي، قضية الإسلام، الفريضة الغائبة، الصحوة الإسلامية، .

والإخوان المفلسون هم من يرون النوعين نوعا واحدا؛ فإذا سمعت أحدهم يدندن حول هاته العبارات فاعلم أنه إخواني.

التمكين الشرعي وسبله الشرعية

يقوم التمكين الشرعي على أصلين عظيمين:

1- رأس الفروع العلمية: وهو كون مقصد العبودية هو محور ورحى جميع الأفعال الشرعية، وهذا هو شرط الإخلاص.

2- رأس الفروع العملية: وهو كون التعاون مع ولاة الأمر في المعروف ومناصحتهم هو محور ورحى التمكين الشرعي، وهذا هو شرط المتابعة.

والرأس الأول سبق الحديث عنه، والرأس الثاني هو ما سيأتي.

الإصلاح يبدأ من أعلى أم من أسفل؟ وما الصواب في ذلك؟

الإصلاح يبدأ من النفس، لا يبدأ من أسفل (الشعب) ولا من أعلى (الحكام)، وبعد إصلاح النفس يصلح المسلم أقرب الناس إليهم، وهم الذين تحت مسؤوليته؛ فكلكم راعٍ وكلّ راع مسؤول عن رعيته، ثم ما تيسر للمسلم بعده.

وقد اختلف الإخوانية بأيّهما يبدأ المسلم؛ هل (يبدأ المسلم بالشعب أو يبدأ بالحكام)؟

فقال الاستعجاليون: يبدأ بالحكام.

وقال الاستبطائيون: يبدأ بالشعب.

وكلاهما باطل كما سبق.

فإن حصل بالفعل تنازع بأيهما يبدأ المسلم، فالنصوص السلفية تشير إلى أن البدء بالحكام أفضل من البدء بالمحكومين.

قال الفضيل بن عياض رحمه الله: (لو أنّ لي دعوة مستجابة ما صيّرتها إلّا في الإمام.
قيل له: وكيف ذلك يا أبا عليّ؟ قال: متى ما صيّرتها في نفسي لم تحزني ومتى صيّرتها في الإمام **فصلاح الإمام صلاح العباد والبلاد.**
قيل: وكيف ذلك يا أبا عليّ؟ فسّر لنا هذا. قال: أمّا صلاح البلاد فإذا أمن النّاس ظلم الإمام عمروا الخرابات ونزلوا الأرض، وأمّا العباد فينظر إلى قوم من أهل الجهل فيقول: قد شغلهم طلب المعيشة عن طلب ما ينفعهم من تعلّم القرآن وغيره، فيجمعهم في دار خمسين خمسين أقلّ أو أكثر، يقول للرّجل: لك ما يصلحك، وعلم هؤلاء أمر دينهم، وانظر ما أخرج الله عزوجل من فيهم ممّا يزكّي الأرض فردّه عليهم. قال: فكان صلاح العباد والبلاد، فقبل ابن المبارك جبهته وقال: يا معلّم الخير من يحسن هذا غيرك) الحلية لأبي نعيم (8/ 91).

وهناك عدد من الآثار السلفية في هذا المعنى.

أصل الولاية مبني على التعاون والتناصر في المعروف لا على التباغض والتنافر

وهذا داخل في عموم قوله ﷺ: [لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حتَّى يُحِبَّ لأخِيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ]. رواه البخاري (13) ومسلم (45) باختلاف يسير.

وقوله ﷺ: [والذي نفسُ مُحَمَّدٍ بيدِهِ لا يُؤْمِنُ أحدُكُم حتى يُحِبَّ لِأَخِيهِ ما يُحِبُّ لنفسِهِ من الخيرِ]. رواه النسائي، وصححه العلامة الألباني في صحيح النسائي (5032).

ومخصوص بقوله ﷺ: [خمسٌ مَن فعل واحدةً منهنَّ كان ضامنًا على اللهِ: مَن عاد مريضًا، أو خرَج غازيًا، أو دخلَ على إمامِه يريدُ تَعزيرَه و توقيرَه، أو قعد في بيتِه فسلِمَ النَّاسُ منهُ، وسَلِمَ من النَّاسِ] رواه أحمد (22146)، وابن أبي عاصم في "السنة" (1021)، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (3253).

قال ابن منظور: (والتعزير في كلام العرب: التوقير، والتعزير: النصر باللسان والسيف. وفي حديث المبعث: قال ورقة بن نوفل: إن بعث وأنا حي فسأعزره وأنصره، التعزير ههنا: الإعانة والتوقير والنصر مرة بعد مرة). لسان العرب (4/ 562).

وضابط التعاون هو أن يكون على البر والتقوى وعلى فعل المعروف، قال تعالى:

﴿وتعاونوا على البرّ والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾.

والتعاون أعمّ من المشاركة في فعل الخير، بل بذل الخير أيّا كان هو من التعاون، قال الإمام قال ابن خويز منداد المالكي في كتابه "أحكام القرآن": (والتعاون على البر والتقوى يكون بوجوه; فواجب على العالم أن يعين الناس بعلمه فيعلمهم، ويعينهم الغني بماله، والشجاع بشجاعته في سبيل الله، وأن يكون المسلمون متظاهرين كاليد الواحدة، المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم، ويجب الإعراض عن المتعدّي وترك النصرة له، ورده عما هو عليه). الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (6/ 47).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية مبيّنا هذا الأصل: (وكل بني آدم لا تتم مصلحتهم لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا بالاجتماع والتعاون والتناصر، فالتعاون والتناصر على جلب منافعهم، والتناصر لدفع مضارهم، ولهذا يقال: الإنسان مدني بطبعه، فإذا اجتمعوا فلا بد لهم من أمور يفعلونها يجتلبون بها المصلحة، وأمور يجتنبونها لما فيها من المفسدة، ويكونون مطيعين للآمر بتلك المقاصد والناهي عن تلك المفاسد، فجميع بني آدم لا بد لهم من طائفة آمر وناهٍ، فمن لم يكن من أهل الكتب الإلهية ولا من أهل دين فإنهم يطيعون ملوكهم فيما يرون أنه يعود بمصالح دنياهم، مصيبين تارة ومخطئين تارة). قاعدة في الحسبة (ص 140-142).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية أيضا مبينا أنواع التعاون مع ولي الأمر: (فإنَّ التَّعاون نوعان: الأوَّل: تعاونٌ على البرِّ والتَّقوى: مِن الجهاد وإقامة الحدود، واستيفاء الحقوق، وإعطاء المستحقِّين؛ فهذا ممَّا أمر الله به ورسوله. ومَن أمسك عنه خشية أن يكون مِن أعوان الظَّلمة فقد ترك فرضًا على الأعيان، أو على الكفاية متوهِّمًا أنَّه متورِّعٌ. وما أكثر ما يشتبه الجبن والفشل بالورع؛ إذ كلٌّ منهما كفٌّ وإمساكٌ.

والثَّاني: تعاونٌ على الإثم والعدوان، كالإعانة على دمٍ معصومٍ، أو أخذ مالٍ معصومٍ، أو ضرب مَن لا يستحقُّ الضَّرب، ونحو ذلك؛ فهذا الذي حرَّمه الله ورسوله. نعم، إذا كانت الأموال قد أُخِذَت بغير حقٍّ، وقد تعذَّر ردُّها إلى أصحابها، ككثيرٍ مِن الأموال السُّلطانيَّة؛ فالإعانة على صرف هذه الأموال في مصالح المسلمين كسداد الثُّغور، ونفقة المقاتلة، ونحو ذلك: مِن الإعانة على البرِّ والتقوى) السياسة الشرعية (ص ٦٧ - ٦٨).

قال العلامة ابن جماعة الكناني الشافعي في ذكره لحقوق ولي الأمر: (الحق الثامن: إعانته على ما تحمله من أعباء الأمة ومساعدته على ذلك بقدر المكنة، قال الله تعالى:

﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾، وأحقّ من أعين على ذلك ولاة الأمور). تحرير الأحكام (ص/ 64).

وقال الشيخ العلامة عبدالعزيز ابن باز: (فالواجب على الرعية وعلى أعيان الرعية التعاون مع ولي الأمر في الإصلاح وإماتة الشر والقضاء عليه، وإقامة الخير بالكلام الطيب والأسلوب الحسن والتوجيهات السديدة التي يرجى من ورائها الخير دون الشر، وكل عمل يترتب عليه شر أكثر من المصلحة لا يجوز؛ لأن المقصود من الولايات كلها: تحقيق المصالح الشرعية، ودرء المفاسد، فأي عمل يعمله الإنسان يريد به الخير ويترتب عليه ما هو أشر مما أراد إزالته وما هو منكر لا يجوز له.

وقد أوضح شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله هذا المعنى إيضاحا كاملا في كتاب "الحسبة" فليراجع؛ لعظم الفائدة). مجموع فتاوى ومقالات متنوعة (8/ 209).

وسئل الشيخ العلامة ابن باز أيضا عن كيفية التعامل مع المنكرات ومع الحاكم إذا لم يكن يحكّم الشريعة؛ فقال: (إذا لم توجد محاكم شرعية، فالنصيحة فقط، النصيحة لولاة الأمور، وتوجيههم للخير، والتعاون معهم حتى يحكموا شرع الله، أما أن الآمر والناهي يمد يده فيقتل أو يضرب فلا يجوز، لكن يتعاون مع ولاة الأمور بالتي هي أحسن حتى يحكموا شرع الله في عباد الله، وإلا فواجبه النصح، وواجبه التوجيه إلى الخير، وواجبه إنكار المنكر بالتي هي أحسن، هذا هو واجبه، قال الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: 16] لأن إنكاره باليد بالقتل أو الضرب يترتب عليه شر أكثر وفساد أعظم بلا شك ولا ريب لكل من سبر هذه الأمور وعرفها).مجموع فتاوى ومقالات الشيخ ابن باز (8/ 207).

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله موصيا الشباب: (علينا أن يكون لنا اتصال بولاة الأمور من الأمراء وحكام القضاء ورجال الهيئات وغير ذلك، وغير ذلك من رؤساء المصالح الحكومية، وألا نجفوهم ونشعر بأننا في واد وهم في واد، لأنه متى حلّ بنا هذا الشعور، فإن الإصلاح قد يكون متعذرا، ولكن لنتواضع للوصول للحقّ، [فإن من تواضع لله رفعه].

ونحن إذا صار لنا اتّصال بولاة الأمور وحكام القضاء ورؤسات الهيئات ممن يتولون أمور المسلمين وحصل التفاهم بيننا وبينهم، فلا بدّ أن تكون النتيجة طيبة بإذن الله). الصحوة الإسلامية، ضوابط وتوجيهات (ص 56).

وصدق الشيخ؛ فلمّا فقد هذا لأصل وصارت العلاقة بين الراعي والرعيّة مبنية على التباغض والتحاسد والنفعية المتبادلة كثر الشرّ وقلّ الخير، والله المستعان.

النصيحة لولي الأمر واجب على الرعية تجاه راعيها، وهي من أعظم أسباب التمكين الشرعي

قال رسول الله ﷺ: [ثلاثٌ لا يَغِلُّ عليهنَّ قلبُ مسلمٍ: إخلاصُ العمل لله، ومناصحةُ ولاة الأمر، ولزومُ جماعة المسلمين، فإنَّ دعوتهم تحيط مِن ورائهم]. رواه الترمدي (2658) وابن ماجه (3056) وأحمد (16738) بألفاظ متقاربة، وهو صحيح.

وقال ﷺ: [إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا...: أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَأَنْ تَنَاصَحُوا مَنْ وَلَّاهُ اللَّهُ أَمْرَكُمْ].رواه أحمد (8799)،وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (1895).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (جَمَعَ فِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ بَيْنَ الْخِصَالِ الثَّلَاثِ؛ إخْلَاصِ الْعَمَلِ لِلَّهِ وَمُنَاصَحَةِ أُولِي الْأَمْرِ وَلُزُومِ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَهَذِهِ الثَّلَاثُ تَجْمَعُ أُصُولَ الدِّينِ وَقَوَاعِدَهُ وَتَجْمَعُ الْحُقُوقَ الَّتِي لِلَّهِ وَلِعِبَادِهِ، وَتَنْتَظِمُ مَصَالِحَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ). مجموع الفتاوى (1/ 18).

وقال الإمام ابن القيم: (أي: لا يبقى فيه غلٌّ، ولا يحمل الغلَّ مع هذه الثلاثة، بل تنفي عنه غلَّه وتخرجه منه، فإنَّ القلب يَغلُّ على الشِّرك أعظم غلٍّ، وكذلك يغلُّ على الغشّ، وعلى خروجه عن جماعة المسلمين بالبدعة والضلالة؛ فهذه الثلاثة تملؤه غلًّا ودغلًا. ودواء هذا الغلِّ واستفراغُ أخلاطه بتجريد الإخلاص والنُّصح ومتابعة السُّنّة). مدارج السالكين (2/ 346).

قلت: تأمّل ذكر النبي ﷺ في هذا الحديث بين الإخلاص الذي هو سرّ العبودية، وبين لزوم جماعة المسلمين وطاعة ومناصحة حكّامهم في سياق واحد، تجد كأنه ينبه إلى أن المخلص السائر على طريق العبودية ينبغي له أن يكون ناصحا لولاة أمره ولا يرى الخروج عليهم، وتأمل وصف مخالفة هاته الخصال بصاحب الغلّ، فالذي يحمل في قلبه غلّا وحقدا لولاة أمره من أبعد الناس عن نصيحتهم وعن سمعتهم وطاعتهم وعدم الخروج عليهم، وهذه هي أزمة العصر بين الشعوب المسلمة وحكامها؛ فقد فقدت الثقة بين الطرفين وصار كلّ واحد يتربص بالآخر إلا ما رحم ربّي، فاحذر أيها المسلم هذا الغلّ والحقد فإنه نابع من عدم الإخلاص لله تعالى.

قال الإمام ابن قيم الجوزية: (الإخلاصُ هو سبيلُ الخَلاص، والإسلامُ مركبُ السلامة، والإيمانُ خاتمُ الأمان.

وقولُه: «ومناصحةُ أئمَّة المسلمين» هذا أيضًا مُنافٍ للغِلِّ والغِشِّ؛ فإنَّ النصيحةَ لا تجامِعُ الغِلَّ، إذ هي ضدُّه، فمن نصَح الأئمَّة والأمَّة فقد برئ من الغِلِّ.

وقولُه: «ولزوم جماعتهم» هذا أيضًا مما يطهِّر القلبَ من الغِلِّ والغِشِّ؛ فإنَّ صاحبَه للزومه جماعةَ المسلمين يحبُّ لهم ما يحبُّ لنفسه، ويكرهُ لهم ما يكرهُ لها، ويسوؤه ما يسوؤهم، ويسرُّه ما يسرُّهم.

وهذا بخلاف من انحاز عنهم، واشتغل بالطَّعن عليهم، والعَيْب والذَّمِّ لهم؛ كفعل الرافضة والخوارج والمعتزلة وغيرهم؛ فإنَّ قلوبهم ممتلئةٌ غِلًا وغِشًّا، ولهذا تجدُ الرافضة أبعدَ الناس من الإخلاص، وأغشَّهم للأئمَّة والأمَّة، وأشدَّهم بعدًا عن جماعة المسلمين؛ فهؤلاء أشدُّ الناس غِلًا وغِشًّا بشهادة الرسول والأمَّة عليهم، وشهادتِهم على أنفسهم بذلك، فإنهم لا يكونونَ قطُّ إلا أعوانًا وظَهْرًا على أهل الإسلام، فأيُّ عدوٍّ قام للمسلمين كانوا أعوانَ ذلك العدوِّ وبطانتَه، وهذا أمرٌ قد شاهدَته الأمَّةُ منهم، ومن لم يشاهده فقد سمعَ منه ما يُصِمُّ الآذانَ ويُشْجِي القلوب) مفتاح دار السعادة (1/ 199).

ومن اللطائف: أنه لما كان الرافضة (أبعدَ الناس من الإخلاص، وأغشَّهم للأئمَّة والأمَّة، وأشدَّهم بعدًا عن جماعة المسلمين أبعدَ الناس من الإخلاص، وأغشَّهم للأئمَّة والأمَّة، وأشدَّهم بعدًا عن جماعة المسلمين) كان أول من نادى بفكرة "الله خلقنا لنحكم" هو الرافضي الماسوني جمال الدين الإيراني المسمى بالأفغاني.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وما أمر الله به ورسوله من طاعة ولاة الأمور ومناصحتهم واجب على الإنسان، وإن لم يعاهدهم عليه، وإن لم يحلف لهم الأيمان المؤكدة، كما يجب عليه الصلوات الخمس والزكاة والصيام والحج، وغير ذلك مما أمر الله به ورسوله من الطاعة ... فإن ما أوجبه الله من طاعة ولاة الأمور ومناصحتهم واجب وإن لم يحلف عليه، فكيف إذا حلف عليه!؟ وما نهى الله ورسوله عن معصيتهم وغشهم محرم وإن لم يحلف على ذلك). قاعدة مختصرة في وجوب طاعة الله ورسوله وولاة الأمور (ص ٣٥- ٣٦).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (كان السلف -كالفضيل بن عياض، وأحمد بن حنبل، وسهل بن عبد الله التستري وغيرهم- يعظمون قدر نعمة الله به، ويرون الدعاء له ومناصحته

من أعظم ما يتقربون به إلى الله تعال). السياسة الشرعية (ص 233).

والنصيحة لولي الأمر نوعان: خاصة وعامة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (النصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم هي مناصحة ولاة الأمور ولزوم جماعتهم؛ فإن لزوم جماعتهم هي نصيحتهم العامة، وأما النصيحة الخاصة فلكلّ واحد منهم بعينه). مجموع الفتاوى (1/ 19.ط الوفاء).

قلت: فمجرد عدم الخروج على ولاة الأمر هو من النصيحة لهم، ولذلك جمع بينهما النبي ﷺ في الحديثين السابقين.

وقد خالف الإخوان المفلسون هاته القواعد الشرعية في التعامل مع الحاكم، فبنوا تعاملهم مع الحكام على الخديعة والمكر والمراوغة والتربّص به حتى تحين الفرصة لإسقاطه والوثوب على السلطة بدله، حتى لو كان الإخواني وزيرا أو مستشارا للرئيس فإنه ينافقه ويداريه حتى لا يكتشف أمره، أو ربما تظاهر بالعلمانية وأصدر عدة قرارات في نصرتها كمنع النقاب أو اللحية حتى يضرب الحاكم بتصرفاته، فهو مستعدّ أن يضحّي بنفسه في سبيل تمكين الجماعة.

وهذا كله بسبب غرسهم في نفوس كلّ واحد منهم الفكرة العقدية الباطلة "أن الله أمرنا بإقامة دولة تحكم بالإسلام"، والحاكم بالإسلام معناه عندهم هو الإخواني ولو لم يحكم بالإسلام، والتي من دخلت قلبه غرست فيه الغلّ والحقد على كل حاكم غير إخواني!

الفرق بين التمكين بتحكيم الشريعة في بلدان المسلمين وبين التمكين بالانتصار على الكفار وبيان خطورة الخلط بين النوعين

التمكين بتحكيم الشريعة في بلدان المسلمين: يكون بالنصيحة لحكام المسلمين وعامتهم، والتعاون معهم في سبيل الخير والهدى.

التمكين بالانتصار على الكفار: يكون بإعداد العدة الدينية والدنيوية.

ولما كان الإخوان المفلسون يكفرون حكّام المسلمين غير الإخونجية كان التمكين عندهم بتحكيم الشريعة -كما يزعمون- لا يكون إلا بجهادهم والقضاء عليهم؛ فقاموا بتنزيل النصوص الواردة في جهاد الكافرين على خروجهم على حكام المسلمين، وقد تابعهم بعض من عارضهم في هاته القضية دون أن ينتبه لهذا الفرق.

فنوعا التمكين عند الإخوان المفلسين في الحقيقة هما نوع واحد، وإن رأيت الإخونجية يوما يصيحون ويصرخون بوجوب جهاد الكفار في قضية بلد ما من بلدان المسلمين فاعلم أنهم ما أرادوا بجهاد الكفار إلا توريط المسلمين وحكامهم في مواجهة خاسرة مع الكفار لينتقموا منهم بطريقة غير مباشرة؛ كما فعلوا ويفعلون في فلسطين.

الإخوان المسلمون... من هم؟ وماذا يريدون؟

الإخوان المفلسون: جماعة باطنية ماسونية صنعها الغرب الكافر لهدم الإسلام وتدمير بلدان المسلمين باسم نصرة الإسلام وبلدان المسلمين.

وهم في ظاهرهم هدفهم هو السلطة، ولكن السعي نحو السلطة هدف أوّليّ فقط، وتدمير الإسلام وبلدان المسلمين هو هدفهم النهائي الحقيقي!

والتفصيل فيما سيأتي.

استفدت بعض ما في هذا الفصل من كتب الشيخ علي الوصيفي رحمه الله والأستاذ نايف العساكر وفقه الله.

قصة تحكيم الشريعة وظهور الإخوان المسلمين باختصار

ضعفت الدولة العثمانية ووقعت كثير من بلدان المسلمين تحت الاحتلال الغربي الكافر، هذا الاحتلال لقي من المسلمين مقاومات عديدة جعلته يقتنع أن القضاء على الإسلام أمر مستحيل، ففكّر الغرب وقادتهم اليهود في طريقة لإشغال المسلمين بأنفسهم وإبقائهم في الحضيض ما دام أنه لا يمكن القضاء عليهم نهائيا.

فماذا كانت الفكرة؟!

قالوا: مادام أن أغلى ما عند المسلمين هو دينهم "الإسلام"، نخترع للمسلمين طائفة من بني جلدتهم يتكلمون بألسنتهم، أهمّ شعار يرفعونه هو "نصرة هذا الدين"، همهم الوحيد هو تدمير المسلمين باسم دين المسلمين، وسلاحهم الفتاك في هذا هو "العاطفة نحو هذا

الدين".

وما هي وسيلتهم في ذلك؟

لقد نظروا في تاريخ الأمم فرأوا أن "الصراع حول السلطة" هو أعظم سبب لتدمير الأمم، ورأوا أن "الديمقراطية" هي أحسن وسيلة لإذكاء هذا الصراع وإبقاء ناره مشتعلة.

ولتحقيق هاته الغاية قالوا: نقسم المسلمين إلى طائفتين، طائفة تعلن التبعية لنا وتحارب الإسلام وهي (العلمانية الليبرالية)، وطائفة تظهر العداء لنا ونصرة الإسلام وهي (الراديكالية الإسلامية)؛ فإذا هما فريقان يختصمون، ونقوم نحن كلّ مرة بنصرة طرف من الأطراف على الآخر حتى تأخذ اللعبة مسلكا أحلى وأمتع!

ومن اللطائف ما دوّنته قبل سنوات [بتصرّف]: (لطيفة: حينما تحفر حفرة وتجد أرضها قاسية، ماذا تفعل؟

تصبّ للحفرة قليلا من الماء لا لتسقيها، ولكن حتى تصبح تربتها هشّة.

كذلك الليبرالية تحفر قبر الإسلام بماء شقيقتها الإخوانية الملوّث.

فتعطي للمسلمين هزّة عنيفة كلّ فترة، يشكّ الجهلة فيها في دينهم لتكمل الحفر.

وهكذا طبقة فطبقة = جيلا فجيلا، حتى يكتمل الحفر!!).

بدأت الإرهاصات لميلاد هاته الجماعة أو الطائفة التي ترفع شعار نصرة الإسلام بمجيء رافضي ماسوني من بلاد العجم خصيصى لبداية تنفيذ هاته القذرة، هذا الشيطان الذي كان خليفة اليهودي عبدالله بن سبأ، كان دوره أيضا هو نفس دور اليهودي عبدالله بن سبأ!

فحطّ رحاله في مصر لتكون أول منطلق لنشر هاته الفكرة ...

بيان أن ضلال جماعة الإخوان في مسألة التمكين في الغايات وفي الوسائل جميعا، وأنهم جماعة باطنية

يعتقد كثير من الناس أن "جماعة الإخوان المفلسين" بجميع محاورها مثل "السرورية" و"القطبية" و"البنائية" و"تنظيم القاعدة" أو "داعش"، وغيرها من الفصائل أن هدفهم نبيل، وهو "تحكيم الشريعة وعودة الخلافة واجتماع المسلمين"، ولكنهم فقط أخطأوا في

الوسيلة، بدخولهم في التحزب والديمقراطية والتكفير والتفجير وغيرها من البلايا، يعني أن الخلل عندهم "خلل في الوسائل، وليس خلل في الغايات"، والصواب أن جماعة الإخوان المفلسين جمعوا بين "الخلل في الوسائل، والخلل في الغايات"، فهم قد جمعوا بين (سوء النية، وسوء العمل)، وخالفوا أصلي العبادة (الإخلاص، والاتباع) جميعا.

وذلك أن "جماعة الإخوان المفلسين" هدفهم شيئان لا غير، وهما: "الوصول للسلطة، وهو هدفهم الأوّلي"، و"تدمير الإسلام والمسلمين، وهو هدفهم النهائي"، ولذلك سلكوا لتحقيق هذين الهدفين مسلك "الجماعات الباطنية" كالقرامطة والنصيرية وأضرابهم، وهم باطنية في شيئين:

في الاعتقاد: فهم سلكوا مع النصوص الشرعية من "الكتاب والسنة" مسلك التلاعب حتى ينسجم مع فكرتهم الأساس "الله خلقنا لنحكم".

في العمل: وهم في تنظيمهم وعملهم في الساحة الدعوية يعتمدون التخفّي والتلون وعدم التصريح بنواياهم وانتمائهم مهما كان ومهما حصل ما حصل، ولذلك كان أبرز ما تسمعه منهم إذا قلت لأحدهم: (هل أنت إخواني؟) يجيبك مباشرة: (أنا مش إخواني، بس...)!

فهم في حقيقتهم باختصار: يرفعون شعار "نصرة الإسلام والمسلمين"، ويعملون "من أجل السلطة على بلاد المسلمين"، ويهدفون "إلى تدمير الإسلام والمسلمين".

حقيقة معتقد الإخوان المفلسين في التمكين أنه حصول الأمر الكوني وليس تطبيق الحكم الشرعي

يعتقد الإخوان المسلمون أن التمكين هو الغاية التي خلقوا من أجلها، وربما قال بعضهم بأنه ليس الغاية التي من خلقوا من أجلها، ولكنه إحدى الغايات التي خلقوا من أجلها؛ كما قال سلمان العودة في شريط (كلمة حق في المسألة الجزائرية).

بل جعله سيد قطب هو النعمة الكبرى التي يعتبر نعيم الجنة نعيما ثانويا إزاءها...

وهذا المعتقد الخبيث لو كان ما يقصده الإخوان المفلسون بالتمكين تحكيم الشريعة فعلا لكان ضلالة عظمى، فكيف وهم يقصدون مجرّد وصولهم للسلطة هو التمكين وتحكيم الشريعة ولو كانت الديمقراطية هي ما يحكمون به!

"الله خلقنا لنحكم" محور عقيدة الإخوان المفلسين والفصائل المنحدرة منها

يعتقد الإخوان المفلسون أن مجرّد وصولهم للسلطة هو "تحكيم للشريعة"حتى لو لم تحكّم الشريعة واقعا، وهذا معروف جدّا من واقعهم في الدول التي وصلوا للحكم فيها مثل مصر والسودان والجزائر وتركيا وبنغلاديش وغيرها، فالديمقراطية وانتشار المنكرات وأعظمها عبادة القبور والشركيات ما زالت منتشرة في تلك الدول التي حكموها ولم يقم الإخونجية بأيّ تغيير وإزالة لتلك المنكرات فيها، بل ربّما دعموها وحاربوا من ينكرها، مثلما تفعله "حركة طالبان القبورية" حاليا من قتل وتنكيل بالدعاة السلفيين، وقد صدر منهم مؤخرا في (رجب ١٤٤٦ هـ) تعميم بمنع "كتاب التوحيد" للإمام المجدد محمد بن عبدالوهاب رحمه الله؛ فـ "تحكيم الشريعة" عند الإخوان المفلسين هو (الأمر القدري = وصولهم للسلطة)، وليس هو (تطبيق الأمر الشرعي).

قال الإخونجي زعيم المربين عندهم عبد الله ناصح علوان السوري: ‹‹والسعي إلى إقامة حكم الله في الأرض غاية الغايات›› "تربية الأولاد في الإسلام" (ص 13).

ويقصدون بـ : "إقامة حكم الله"؛ وصولهم للسلطة؛ لأن الحكم لله هو أن يحكم السلطة الطائفة المختارة بالعناية الإلهية "الإخوان المسلمون"، وقد كتب يوسف القرضاوي كتابا بعنوان "الحل الإسلامي فريضة وضرورة"، ويعني بـالإسلامي: الإخواني.

وهاته الفريضة المزعومة عندهم فكرة باطنية في القلوب تتطلّب التجسيد على الواقع، ولذلك يسمونها "الفريضة الغائبة"، ووضعوا لذلك قاعدة: ‹‹تمكين الباطن أصل لتمكين الظاهر، وتمكين الظاهر فرع عن تمكين الباطن››. ويرونها كما يقول القرضاوي -بكلّ باطنية-: ‹‹أرأيت إلى الأرض الخاشعة الهامدة، ينزل عليها الماء، فتهتز وتربو وتحيا بعد موتها، وتنبت من كل زوج بهيج: كذلك كانت الأمة الإسلامية في منتصف القرن الرابع هجري، وقبل ظهور دعوة الإخوان المسلمين›› التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا (ص 3).

ويجعلون هاته الطريق طويلة وشاقة مثل مراتب الولاية عند الصوفية ومقاماتها التي يعدّونها بالمئات، ولا سبيل إلى ذلك إلا بتربية الأجيال على "ضرورة التمكين"؛ وفي ذلك يقول القرضاوي: ‹‹وكان إمام الجماعة حسن البنا يعلم أن طريق التربية بعيدة الشقّة، طويلة المراحل، كثيرة المشاق، ولا يصبر على طولها إلا القليل من الناس من أولي العزم›› التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا (ص 4).

ولذلك كان أهمّ ما عند الإخوان هو العناية التامة بتلك التربية للأجيال، وأن "التمكين" لا يكون إلا عن طريقها، يقول يوسف القرضاوي: ‹‹كانت تربية هذا المسلم هي المهمة

الأولى لحركة الإخوان؛ لأنه هو وحده أساس التغيير، ومحور الصلاح والإصلاح، ولا أملَ في استئناف حياة إسلامية، أو قيام دولة إسلامية، أو تطبيق قوانين إسلامية، بغيره›› التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا (ص 7).

ويقول القرضاوي أيضا: ‹‹السرّ في كل كفاح ناجح يكمن أوّلَ ما يكمن في تلك التهيئة النفسية، والتعبئة الشعورية، والتربية الأخلاقية، التي تغيّر الأفراد؛ فتتغيّر بها المجتمعات من حال إلى حال›› نفس المصدر السابق (ص 32).

ويجعل الإخوان الثبات على عقيدة "ضرورة التمكين" هو الثبات الذي تدلُّ عليه الأدلة الشرعية؛ لأن "التمكين" هو الإيمان، يقول حسن البنا : ‹‹وأريد بالثبات أن يظلّ الأخ عاملا مجاهدا في سبيل غايته مهما بعدت المدة، وتطاولت السنوات والأعوام، حتى يلقى الله على ذلك ›› نفس المصدر السابق (ص 34).

لا بد للإسلام أن يحكم!

كثير من الناس استنكروا قول سيد قطب: (ولا بد للإسلام أن يحكم لأنه العقيدة الوحيدة الإيجابية الإنشائية التى تصوغ من المسيحية والشيوعية معاً مزيجاً كاملا، يتضمن أهدافهما جميعاً، ويزيد عليهما التوازن والتناسق والاعتدال). معركة الإسلام والرأسمالية (ص 61). أنه كيف يصف الإسلام بأنه مزيج من النصرانية والشيوعية؟!

ولكن قليل من يفهم معناها فهما تامّا، وهو أنه يقصد بذلك ما معناه: (لا بدّ للإخوان المفلسين أن يصلوا للسلطة رغم أنف كل البشر، حتى لو أدّى إلى قتلهم جميعا وإبادتهم، حتى لو أدى ذلك إلى مصارعة قدر ربّ العالمين! -أستغفر الله-)؛ يعني: عبارة (لا بدّ) في كلام سيد قطب ليست بمعنى (الواجب الشرعي)، وإنما (الواجب القدري)!، بدليل أنه قال: (أن يَحْكُمَ)، والصواب: (يُحَكَّمَ).

وإذا كان كذلك، فالإسلام لا شكّ أنه سيكون مزيجا يضمّ مميزات النصرانية والشيوعية قطبي الحكم في العالم في زمن سيد قطب ويتفوق عليهما بميزات أخرى؛ فمن جمع بين الفكرتين أولى بالحكم ممن تفرّد بإحداهما، فكيف إذا تفوق عليهما مجتمعتين!

ولذلك قال كمال الهلباوي -أحد مفكريهم- كما في لقاء له مع المجوسي خامنئي: (نحن أولى من يقود)، يعني: من يحكم!

وقال زعيمهم الأول حسن البنا حاثّا أتباعه بكلّ صراحة على محاولة التغلّب على قدر

رب العالمين من أجل التمكين (السلطة): «لا تصادموا نواميس الكون فإنّها غلابة، ولكن غالبوها، واستخدموها، وحوّلوا تيارها، واستعينوا ببعضها على بعض» الرسائل (ص 161).

ويفلسف الإخونجي صلاح الراشد هذه الزندقة في الصراع مع القدر للوصول إلى الكرسي بطابع التنمية البشرية المهاريشية قائلا: «كن رقيقا لطيفا في مداعبة القدر، تودّدْ له، إن القدر يتفاعل مع العقل على المستوى العالي» قانون الجذب (ص 133).

فالحاصل: أن معتقد الإخوان المفلسين يقوم على أن الإخوان هم الإسلام، والإسلام هو الإخوان، وأن انتصارهم في الانتخابات هو انتصار الإسلام، وهزيمتهم هو هزيمة الإسلام، وأنّ أوامر المرشد العام للجماعة مهما كانت هي تطبيق للإسلام، بل حتى مجرد تصرفاته هي الإسلام؛ كما قال مؤرخ الإخوان محمود عبدالحليم في كتابه "الإخوان المسلمون: أحداث صنعت التاريخ" (1/ 270) عن زعيمهم الأول حسن البنا: (كنّا نراه الإسلام في صورة بشر)!

وجميع كلامهم يدور في فلك هاته الفكرة، ويجب أن يفهم في إطار هذا السياق، وإلا فلن تفهم أبدا حقيقة ما يقصدون، فهم بهذا جماعة باطنية بامتياز.

الأصل الباطني الغنوصي لفكرة التمكين بمفهوم الإخوان المفلسين

لما قال الله تعالى لإبليس اسجد لآدم لم يسجد تكبّرا، فعاقبه الله عزّ وجلّ بأن طرده من رحمته، فحمل إبليس في نفسه لآدم وذريته من بعده غلّا وحقدا دائما إلى يوم القيامة، ولما أسكن الله آدم عليه السلام وزوجه الجنة أخرجهما إبليس منها بسبب أكلهما من الشجرة، بقيت هاته الحادثة العظمى دائما في قلب إبليس ينسج على منوالها، ولذلك حذّرنا الله سبحانه أن تتكرر معنا؛ فقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ۗ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

ولما كانت العبودية لله وحده هي السبيل الوحيد لدخول الجنة سلك إبليس وجنوده معها سبلا عديدة لصرف الناس وتحريف طريقهم عنها، فهو يسعى دائما لصرف الناس عن العبودية التي مفتاح العودة إلى الجنة التي أخرجنا منها، وهاته الطرق يجمعها سبيلان لا ثالث لهما، كتبت عنهما قبل سنوات مقالا بعنوان "مقالة مختصرة في أصول الضلال العقدي عبر التاريخ".

وهاتان الطريقتان هما:

1- **طريقة عدم العمل بالعلم، وهاته طريقة المغضوب عليهم، وهاته تقوم على التهرّب من العبودية**، وهم اليهود الذين قال الله فيهم: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: 71].

قال الحافظ ابن كثير: عن ابن عباس: كادوا ألا يفعلوا، ولم يكن ذلك الذي أرادوا، لأنهم أرادوا ألا يذبحوها.

يعني أنهم مع هذا البيان وهذه الأسئلة، والأجوبة، والإيضاح ما ذبحوها إلا بعد الجهد، وفي هذا ذم لهم، وذلك أنه لم يكن غرضهم إلا التعنت، فلهذا ما كادوا يذبحونها) تفسير القرآن العظيم (1/ 301).

2- **طريقة العمل بلا علم، وهاته طريقة الضالين، وهاته تقوم بالعبودية بغير شرطي العبودية (الإخلاص والمتابعة)**؛ فهي ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (3) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية: 3-4]، وهؤلاء هم النصارى.

قال الحافظ ابن كثير: (وقوله: (عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ) أي: قد عملت عملا كثيرا، ونصبت فيه، وصليت يوم القيامة نارا حامية.

وقال البخاري: قال ابن عباس: (عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ) النصارى) تفسير القرآن العظيم (8/ 385).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (النصارى لهم عبادة بلا علم وسنّة؛ فهم قد يعبدون غير الله، وقد يعبدونه بما لم يشرعه.

واليهود لهم علم بلا عمل ولا سنّة؛ فهم قد يكذّبون بالحقّ بالجدل، وقد يصدّقوه ولكن لا يعملون بموجبه). أقسام القرآن (ص 101).

وقال أيضا: (وجماع ذلك: أن كفر اليهود أصله من جهة عدم العمل بعلمهم، فهم يعلمون الحق ولا يتبعونه عملا، أو لا قولا ولا عملا.

وكفر النصارى من جهة عملهم بلا علم، فهم يجتهدون في أصناف العبادات بلا شريعة من الله، ويقولون على الله ما لا يعلمون) اقتضاء الصراط المستقيم (1/ 79).

ومخالفة هاتين الطريقتين الضالتين تكون بالجمع بين العلم والعمل، وهو الصراط المستقيم الذي ندعوا الله أن يهدينا إياه، لذلك جاء الدعاء في سورة الفاتحة بقوله تعالى:

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: 6-7].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (المهتدون أصحاب الصراط المستقيم، الذين اتبعوا الرسول علما وعملا، فعلموا ما جاء به وصدّقوه وأحبّوه وعملوا بموجبه). أقسام القرآن (ص 100).

وأمر ضلال الخلق بهاتين الطريقتين ليس مقصورا على اليهود والنصارى، بل ما قبلهم وما بعدهم من الأمم كلّها سلكت هاتين السبيلين في بعدها عن الغاية الحقيقية التي خلقهم الله عزّ وجلّ من أجلها، وإنما ضرب المثل باليهود والنصارى لكونهم أظهر الأمم في ذلك مع مجيء وحي ربّ العالمين إليهم.

وعطفا على ما سبق من ذكر الطريقتين؛ أقول -وبعبارة علمية اصطلاحية-: الفلسفة نوعان لا ثالث لهما:

1- فلسفة علمية تقوم على التكذيب بالحق، وهي الفلسفة المشائية.

2- فلسفة عملية تقوم على التصديق بالباطل، وهي الفلسفة الغنوصية.

وهاته الثانية -أعني: الغنوصية- تسلك طريق المجاهدات والرياضات حتى تفيض عليها المعارف والعلوم، يعني أن تصرف تعبّدك لغير الغاية التي خلقت من أجلها حتى تعود للجنة، وإنما لغاية دنيوية هي جنّتها وغاية مناها، وهذا بالضبط هو منهج الإخوان المفلسين، فالتمكين هو غايتهم وجنتهم، ولذلك لا تستغرب حينما تقرأ كلام سيد قطب أن نعيم الجنة شيء ثانوي في مقابل التمكين!

قال شيخ الإسلام ابن تيمية عن عقائد الفلاسفة: (هؤلاء يجعلون العبادات التي أمرت بها الرسل، مقصودها إصلاح أخلاق النفس لتستعدّ للعلم الذي زعموا أنه كمال النفس أو مقصودها إصلاح المنزل والمدينة؛ وهو: الحكمة العملية). مجموع الفتاوى (9/ 74).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (مذهب الملاحدة الباطنية مأخوذ من قول المجوس بالأصلين، ومن قول فلاسفة اليونان بالعقول والنفوس). مجموع الفتاوى (14/ 202).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رادا على قول الشاذلي الصوفي في حزبه: [نسألك العصمة في الحركات والكلمات والإرادات والخطرات؛ من الشكوك والظنون والأوهام الساترة للغيوب عن مطالعة القلوب]: ‹‹ولكن هؤلاء الذين يقصدون بالعبادة العلو في الأرض،

والتشبه بالإله، كما يقوله المتفلسفة: إن الفلسفة هي التشبه بالإله على قدر الطاقة ، يقعون في أمور من هذا الباب -يقصد: سؤال العصمة!-›› الرد على الشاذلي (ص 20).

وقال شيخ الإسلام أيضا: ‹‹ولهذا يوجد كثير من السالكين لا يطلبون التقرب إلى الله، وطلب رضوانه ورحمته والنجاة من عذابه، بل إنما مطلوبهم نوع من المكاشفة والتأثير، فيطلبون علما يستعلون به على الناس، أو قدرة يستعلون بها على الناس، وذلك من باب إرادة العلوّ في الأرض والفساد، فيعاقبهم الله بنقيض قصدهم.

وكرامات أولياء الله تجيء ضمنا وتبعا؛ فإنهم يقصدون وجه الله، فتجيء المكاشفات والتأثيرات تبعا لا يقفون عندها، ولا تكون هي أكبر همهم ولا مبلغ علمهم››. الرد على الشاذلي (ص 24).

قال الله تعالى: ﴿تلك الدار الآخرة نجلعها للذين لا يريدون علوّا في الأرض ولا فسادا﴾.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (مريد العلوّ فسد عليه دينه ودنياه بظلم الناس ومعاداتهم لذلك) السياسة الشرعية (ص 238).

من أين جاءت فكرة الغلوّ في طلب النصر ولماذا؟!

بسبب حبّ الإخوان المفلسين الشديد للسلطة جندوا جميع طاقاتهم العلمية والعملية لتحقيق النصر الذي عندهم هو الفوز بالرهان السياسي، فالآيات والأحاديث والآثار وأقوال العلماء كلّها تأوّل وتوجّه معانيها لخدمة هذه الألعوبة.

فالآيات والأحاديث التي تتكلم عن المؤمنين والصادقين وعن أئمتهم مثل موسى عليه السلام تنزل على "الإخوان المسلمين"، والآيات والأحاديث التي تتكلم عن الكافرين والمجرمين وعن أئمتهم مثل فرعون عليه لعنة الله تنزل على المنافسين لهم!

هكذا، في استغلال رخيص بطريقة باطنية فاجرة للوحي العظيم الذي به سعادة الدنيا والآخرة من أجل فتات الدنيا!

وأكثر العلوم الشرعية التي اشتغل "الإخوان المفلسون" عليها تلاعبا واستغلالا لمصلحتهم الدنيوية في اللهث خلف السلطة هو "علم السيرة النبوية"، ويكفيك أن تنظر في بعض مؤلفاتهم في هذا الجانب، مثل: "فقه السيرة النبوية" للإخواني البنائي منير محمد الغضبان السوري، وكتاب "المنهج الحركي للسيرة النبوية" له أيضا، وكتاب "السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث" للإخواني البنائي علي الصلابي الليبي،

فالناظر في هاته الكتب وأمثالها يجد أن أصحابها بلغوا درجة رخيصة جدّا بلا حياء ولا خوف من الله عزّ وجلّ في التلاعب بأحداث السيرة النبوية من أجل التخطيط والتنظير لمشروع جماعتهم الإخوانية القذرة.

بيان بطلان منهج الاستعجال ومنهج الاستبطاء، وأيهما أخطر؟

بما أنّ الإخوان المفلسين جمعوا بين (سوء النية وسوء العمل)؛ وكانت نيتهم هي الوصول للسلطة، فاختاروا طريقة للعمل لتحقيق غايتهم، وهي طريقة تقوم على عدّة طرق، حتى يتشتت الذي ينافسهم أو يراقبهم ولا يستطيع السيطرة عليهم؛ لأنه كلّما سدّ لهم منفذا خرجوا له من منفذ آخر، وهكذا ظلّوا يخترعون الأساليب والطرق لتحقيق هاته الغاية.

ومن أبرز أساليبهم قديما نحو السلطة أسلوبان: (منهج الاستعجال، ومنهج الاستبطاء)، وسنتكلّم عنهما فيما يلي، فاللهمّ توفيقك وتسديدك.

1- الاستعجال: يقوم هذا المنهج على إعلان تكفير الحكّام ومباغتتهم بالسلاح دون انتظار اكتمال اكتساح الساحة الدعوية، وهؤلاء يظهرون تكفير العصاة والفساق والدعوة إلى استباحة دمائهم، وهذا الخطاب تتبناه جماعات التكفير والهجرة ومن سلك سسبيلهم كداعش والقاعدة وأضرابهم.

2- الاستبطاء: يقوم هذا المنهج على إخفاء تكفير الحكام والرعية من غير الإخوان، والتظاهر بالتسامح والوسطية، وسلوك سبيل التلون والنفاق في ذلك، رافعين شعار (تمسكن حتى تتمكن)، وهؤلاء يظهرون الفسق في أنفسهم قبل غيرهم، فتجده حليقا أو مدخّنا أو امرأة متبرجة، وربما تظاهر بمهاجمة التكفيريين وتسفيه منهجهم من باب (واحد يفجّر والآخر يستنكر)، وهنا طبعا سيلصقهم بالسلفية الوهابية حتى يبعد الشبهات عن نفسه، وناصر دعاة الليبرالية والحرية، وربما دعا إلى القبورية والبدع كالموالد والحضرات الصوفية، حتى يتسلل وسط المناصب في الدولة، ولكن قلبه يشتعل حقدا وتكفيرا، ولا يظهر هذا الحقد والغلّ إلا عند الفتن والأحداث، وهذا الخطاب يتبناه البنائية.

بل بلغ التشيطن بكثير منهم أن يهاجم جماعة الإخوان في حدّ ذاتها ويصفها بالإرهاب ويشتم قادتها ويعلن أنه صوفي قبوري أو ليبرالي منحلّ إذا انكشف أمرها للناس كما حدث في مصر وبعض البلدان العربية بعد الربيع العربي.

وهؤلاء يسلكون في دعوتهم للأفراد مع أتباعهم مسلك التربية العميقة الباطنية التي تقوم على التلاعب بالقرآن والسنة وكلام أهل العلم من أجل تجنيدهم في خدمة حزب الإخوان المفلسين واستخدام أسلوب "الدعوة الفردية" مع شباب المسلمين.

وهؤلاء أخطر بلا ريب من الصنف الأول لكونهم أعداء متخفّين غير ظاهرين.

ويعتبر الجناح السروري لجماعة الإخوان المفلسين في الجملة برزخا بين الطائفتين؛ فهو يسلك سبيل الطرف الأخير ليوصلهم إلى مسلك الطرف الأول؛ فمن ظهر من خصاله ميله للطرف الأول أرسلوه إلى مواطن الصراع، ومن ظهر ميله للطرف الثاني احتفظوا به كمحجن لجلب ضحايا آخرين.

فالحاصل أن منهج الاستبطاء أخطر وأشرّ؛ لغموضه وعدم وضوح انحرافه، حتى اعتقد البعض أنه منهج سلفي رباني، وهو في الحقيقة منهج خلفيّ إخواني.

فائدة: هناك عدد من العلماء الإصلاحيين دندنوا حول (منهج الاستبطاء في التمكين) ولم يكن قصدهم بذلك الفكر الثوري القائم على الإعداد للمظاهرات والفوضى، وإنما **وسيلتهم** في ذلك هو منهج علمي يقوم على تصفية العقائد والأحكام ثم تربية الشعوب الإسلامية عليها، **وغايتهم** هي إعادة مجد المسلمين والوصول إلى تحكيم الحكام للشريعة **حقيقة لا دعوى مجرّدة**، وهذا المنهج تأثّر في أسلوبه بالمنهج الاستبطائي الإخواني بحسن نيّة معتقدا صحّته وأنه منهج سلفي، **ولذلك خالفه في الغايات والوسائل**، وهذا هو منهج الشيخ العلامة المحدث محمد ناصر الدين الألباني وعدد من العلماء المعاصرين، وسيأتي بيان ذلك أكثر.

بيان موقف الاستعجالية والاستبطائية من العبودية وبيان حقيقة العبودية السلفية

موقف الاستعجالية: يرون العبودية تأتي بعد التمكين بمفهومهم هم، وهذا قاله سيد قطب في بعض المواضع من كتابه في ظلال القرآن.

موقف الاستبطائية: يرون العبودية قبل التمكين بمفهومهم هم، وهي وسيلة للتمكين لا غاية.

موقف السلفية: يرون العبودية قبل التمكين بالطريقة الشرعية وأثناء التمكين وبعد التمكين وعند حصول وعند عدم حصول التمكين، ويرون أن التمكين في حدّ ذاته وسيلة للعبودية، فالعبودية هي غاية الغايات.

التعامل مع العلماء الذين وقعوا في زلات في هاته المسألة

والكلام هنا ليس عن مسائل اجتهادية لها حظ من النظر، وإنما الكلام عن زلات لا يجوز اتباعها مطلقا.

قال الإمام ابن قيم الجوزية: (العالم قد يَزِلُّ ولا بدَّ؛ إذ ليس بمعصوم، فلا يجوز قبول كلِّ ما يقوله، و [أن] يُنزَّل قولُه منزلةَ قول المعصوم؛ فهذا الذي ذمَّه كلُّ عالمٍ على وجه الأرض، وحرَّموه وذمُّوا أهله، وهو أصل بلاء المقلِّدين وفتنتهم، فإنهم يقلِّدون العالم فيما زلَّ فيه وفيما لم يزلَّ، وليس لهم تمييز بين ذلك، فيأخذون الدين بالخطأ ولا بدَّ، فيُحِلُّون ما حرَّم الله ويُحرِّمون ما أحلَّ ويشرعون ما لم يشرع، ولا بدَّ لهم من ذلك، إذ كانت العصمة منتفيةً عمن قلَّدوه، فالخطأ واقع منه ولا بدَّ) إعلام الموقعين (3/ 20).

وقال العلامة الشاطبي: (إِذَا ثَبَتَ هَذَا، فَلَا بُدَّ مِنَ النَّظَرِ فِي أُمُورٍ تَنْبَنِي عَلَى هَذَا الْأَصْلِ:

-مِنْهَا: أَنَّ زَلَّةَ الْعَالِمِ لَا يَصِحُّ اعْتِمَادُهَا مِنْ جِهَةٍ وَلَا الْأَخْذُ بِهَا تَقْلِيدًا لَهُ وَذَلِكَ؛ لِأَنَّهَا مَوْضُوعَةٌ عَلَى الْمُخَالَفَةِ لِلشَّرْعِ، وَلِذَلِكَ عُدَّتْ زَلَّةً، وَإِلَّا فَلَوْ كَانَتْ مُعْتَدًّا بِهَا؛ لَمْ يُجْعَلْ لَهَا هَذِهِ الرُّتْبَةُ، وَلَا نُسِبَ إِلَى صَاحِبِهَا الزَّلَلُ فِيهَا، كَمَا أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُنْسَبَ صَاحِبُهَا إِلَى التَّقْصِيرِ، وَلَا أَنْ يشنع عليه بها، ولا ينتقص مِنْ أَجْلِهَا، أَوْ يُعْتَقَدُ فِيهِ الْإِقْدَامُ عَلَى الْمُخَالَفَةِ [بَحْتًا]، فَإِنَّ هَذَا كُلَّهُ خِلَافُ مَا تَقْتَضِي رُتْبَتُهُ فِي الدِّينِ...

-وَمِنْهَا: أَنَّهُ لَا يَصِحُّ اعْتِمَادُهَا خِلَافًا فِي الْمَسَائِلِ الشَّرْعِيَّةِ؛ لأنها لم تَصْدُرْ فِي الْحَقِيقَةِ عَنِ اجْتِهَادِهِ، وَلَا هِيَ مِنْ مَسَائِلِ الِاجْتِهَادِ، وَإِنْ حَصَلَ مِنْ صَاحِبِهَا اجْتِهَادٌ، فَهُوَ لَمْ يُصَادِفْ فِيهَا مَحَلًّا، فَصَارَتْ فِي نِسْبَتِهَا إِلَى الشَّرْعِ كَأَقْوَالِ غَيْرِ الْمُجْتَهِدِ، وَإِنَّمَا يُعَدُّ فِي الْخِلَافِ الْأَقْوَالُ الصَّادِرَةُ عَنْ أَدِلَّةٍ مُعْتَبَرَةٍ فِي الشَّرِيعَةِ، كَانَتْ مِمَّا يَقْوَى أَوْ يَضْعُفُ، وَأَمَّا إِذَا صَدَرَتْ عَنْ مُجَرَّدِ خَفَاءِ الدَّلِيلِ أَوْ عَدَمِ مُصَادَفَتِهِ فَلَا، فَلِذَلِكَ قِيلَ: إِنَّهُ لَا يَصِحُّ أَنْ يُعْتَدَّ بِهَا فِي الْخِلَافِ، كَمَا لَمْ يَعْتَدَّ السَّلَفُ الصَّالِحُ بِالْخِلَافِ فِي مَسْأَلَةِ رِبَا الْفَضْلِ، وَالْمُتْعَةِ، وَمَحَاشِي النِّسَاءِ، وَأَشْبَاهِهَا مِنَ الْمَسَائِلِ الَّتِي خَفِيَتْ فِيهَا الْأَدِلَّةُ عَلَى مَنْ خَالَفَ فِيهَا) الموافقات (5/ 136-139).

أصناف الناس في التعامل مع زلات العلماء:

أصناف الناس في هذا: صنفا جفاء وتفريط، وصنفا غلوّ وإفراط، وصنف أهل علم ورحمة.

صنفا الجفاء والتفريط:

1- من يحمل الكلام على ظاهره، ولكن يتكلف له من الأدلة ما يصحّحه به.

2- من يتأول الكلام على غير ظاهره حتى يبعد قائله عن التهمة فيما يزعم.

صنفا الغلوّ والإفراط:

1- من يحمل الكلام على ظاهره؛ لا ليقول الحقّ، وإنما لينتقم من قائله.

2- من يتأول الكلام على أخبث المحامل وأسوئها؛ ليشنع به على قائله.

أهل العلم والرحمة:

إذا وجدوا زلّة لعالم مجتهد عرف بطيب السيرة والبلاء الحسن في خدمة ديانة رب العالمين جمعوا بين:

1- ردّ الخطأ وبيان الصواب، فلا يتأوّلون كلامه، ولا يتكلفون له من الأدلة ما يصححونه به.

وهذا الوجه مقدم؛ لأن شرف الدين مقدّم على شرف الأشخاص.

2- حفظ كرامة العالم، فلا ينتقصون من شخصه بسبب خطئه، فضلا عن أن يتهموه بخبث أو فساد في النية.

وهذا الوجه مؤخّر؛ لأن شرف العالم تابع لشرف فاستحقّ التكريم به، وقد قال النبي ﷺ: [ليس منَّا مَنْ لم يُجِلَّ كبيرَنا، ويرحمْ صغيرَنا! ويَعْرِفْ لعالِمِنا حقَّهُ]، حسّنه العلامة الألباني في صحيح الجامع (5443).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فإن من عرف حقائق أقوال الناس وطرقهم التي دعتهم إلى تلك الأقوال حصل له العلم والرحمة، فعلم الحق ورحم الخلق، وكان مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وهذه خاصة أهل السنة المتبعين للرسول ﷺ، فإنهم يتبعون الحق ويرحمون من خالفهم باجتهاده حيث عذره الله ورسوله ﷺ، وأهل البدع يبتدعون بدعة باطلة ويكفرون من خالفهم فيها). شرح العقيدة الأصبهانية (ص 47).

وقال أيضا: (فأمَّا الصِدّيقون والشُّهداء والصالحون فليسوا معصومين، وهذا في الذنوب

المحققة، وأمَّا ما اجتهدوا فيه فتارة يصيبون، وتارة يخطئُون، فإذا اجتهدوا وأصابوا فلهم أجران، وإذا اجتهدوا وأخطؤوا فلهم أجر على اجتهادهم، وخطؤُهم مغفور لهم، وأهل الضلال يجعلون الخطأ والإثم متلازِمَيْن، فتارة يغلون فيهم يقولون: إنهم معصومون، وتارة يجفون عنهم ويقولون: إنهم باغون بالخطأ، وأهل العلم والإيمان لا يُعصمون ولا يُؤَثَّمون). مجموع الفتاوى (35/ 69).

ثم قال: (فَالْمُتَأَوِّلُ الْمُجْتَهِدُ: كَأَهْلِ الْعِلْمِ وَالدِّينِ، الَّذِينَ اجْتَهَدُوا، وَاعْتَقَدَ بَعْضُهُمْ حِلَّ أُمُورٍ، وَاعْتَقَدَ الْآخَرُ تَحْرِيمَهَا كَمَا اسْتَحَلَّ بَعْضُهُمْ بَعْضَ أَنْوَاعِ الْأَشْرِبَةِ، وَبَعْضُهُمْ بَعْضَ الْمُعَامَلَاتِ الرِّبَوِيَّةِ وَبَعْضُهُمْ بَعْضَ عُقُودِ التَّحْلِيلِ وَالْمُتْعَةِ، وَأَمْثَالُ ذَلِك، فَقَدْ جَرَى ذَلِك وَأَمْثَالُهُ مِنْ خِيَارِ السَّلَفِ. فَهَؤُلَاءِ الْمُتَأَوِّلُونَ الْمُجْتَهِدُونَ غَايَتُهُمْ أَنَّهُمْ مُخْطِئُونَ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا} وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ اللَّهَ اسْتَجَابَ هَذَا الدُّعَاءَ) (35/ 75).

ولا بأس بوصف الزلّة التي تصدر من الفاضل بوصف يبين بطلانها وأنها ليست من الأقوال القوية التي تقابل بالاعتبار، فالوصف هنا للمقالة لا للقائل، قال الشيخ ابن باز معلّقا على تأويل القاضي عياض المالكي لصفة القدم: (على كل حال باطل، كلام عياض باطل، كلام عياض أو غيره ممن تأوّل الحديث كله باطل، والحق ما قاله أئمة السنة من إثبات القدم لله). شرح كتاب التوحيد من البخاري (ص/ 190).

سؤال: وهل يؤجر العالم حتى ولو كان قوله مما يقطع بخطئه ولا يجوز أن يتابع عليه؟

جوابه: إذا استفرغ العالم جهده في ذلك، وكانت المسألة من دقيق المسائل التي تخفى حتى على بعض الأذكياء، فهو مأجور أجرا واحدا وذنبه مغفور، وهذا الحكم ليس خاصّا بالمسائل الاجتهادية التي لها حظّ من النظر كما يعتقد البعض، بل يعمّ كلّ مسألة شأنها هكذا؛ لأن الخفاء والوضوح أمر نسبي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (إذا اجتهد الرجل في متابعة الرسول ﷺ ، والتصديق بما جاء به، وأخطأ في المواضع الدقيقة التي تشتبه على أذكياء المؤمنين، غفر الله له خطاياه). مجموع الفتاوى (12/ 103).

سؤال: هل يأثم مقلده في مثل هذا النوع من المسائل إذا تبين له الصواب؟

جوابه: نعم، ولا يعذر بكون العالم الفلاني سبقه إلى هذا القول؛ لأنّ هذا العالم له عذره، وإما هذا فهو غير معذور، وهذا من دقيق الفقه في أنواع المسائل التي وقع فيها

الاختلاف.

قال الحافظ ابن رجب: (وهاهنا أمرٌ خفيٌّ ينبغي التَّفطُّن له، وهو أنَّ كثيراً من أئمَّةِ الدِّينِ قد يقولُ قولاً مرجوحاً ويكون مجتهداً فيه، مأجوراً على اجتهاده فيه، موضوعاً عنه خطؤه فيهِ، ولا يكونُ المنتصِرُ لمقالته تلك بمنْزلته في هذه الدَّرجة؛ لأنَّه قد لا ينتصِرُ لهذا القولِ إلاَّ لكونِ متبوعه قد قاله، بحيث أنَّه لو قاله غيرُه من أئمَّة الدِّينِ، لما قبِلَهُ ولا انتصر له، ولا والى من وافقه، ولا عادى من خالفه، وهو مع هذا يظن أنَّه إنَّما انتصر للحقّ بمنْزلة متبوعه، وليس كذلك، فإنَّ متبوعه إنَّما كان قصدُه الانتصارَ للحقِّ، وإنْ أخطأ في اجتهاده، وأمَّا هذا التَّابعُ، فقد شابَ انتصارَه لما يظنُّه الحقَّ إرادة علوِّ متبوعه، وظهور كلمته، وأنْ لا يُنسَبَ إلى الخطأ، وهذه دسيسةٌ تَقْدَحُ في قصد الانتصار للحقِّ، فافهم هذا، فإنَّه فَهْمٌ عظيم، والله يهدي مَنْ يشاء إلى صراطٍ مستقيم). جامع العلوم والحكم (ص 719).

ولا ينبغي لصاحبه أن يذكر القول الذي تبين خطؤه في سبيل الاحتجاج.

قال الشيخ ابن عثيمين: (التعليل بالخلاف فيه خلاف، والصحيح أنه لا تعليل في الخلاف، ولو أننا أخذنا بهذا القول -أي: بالتعليل بالخلاف- ما بقي مسألة مباحة؛ لأنه لا تكاد تجد مسألة إلا وفيها خلاف.

فإذا قلنا: إن مراعاة الخلاف لازمة، وإنه يجب أن ندع ما فيه الخلاف من باب دع ما يريبك إلى ما لا يريبك لم يبق مسألة إلا وهي مكروهة، فالصواب أنه لا تعليل في الخلاف.

ولكن يقال: إن كان الخلاف له حظ من النظر -أي من الدليل- فإننا نراعيه، لا لكونه خلافًا ولكن لما يقترن به من الدليل الموجب للشبهة، وهذا هو الصحيح، وهو الذي اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وأنكر التعليل بالخلاف، وما ذكره صحيح؛ فإن الخلاف إذا لم يكن له حظ من النظر فإنه لا عبرة به، ولهذا قيل:

وَلَيْسَ كُلُّ خِلَافٍ جَاءَ مُعْتَبَرا ... إِلَّا خِلَافًا لَهُ حَظٌّ مِنَ النَّظَرِ).

الشرح الممتع (7/ 463-464).

وقال الشيخ ابن عثيمين ممثلا لهذا النوع، وهي مسألة (فناء النار) مع أن من قال بذلك هو الإمام ابن قيم الجوزية في بعض كتبه وحكاه عن شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية، رحم

الله الجميع: (ذُكر التأبيد في آيات ثلاث:

١ - في سورة النساء، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً﴾ (النساء: ١٦٨) إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً﴾ [النساء: ١٦٩].

٢ - في سورة الأحزاب، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً (64) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً﴾ [الأحزاب: ٦٥].

٣ - في سورة الجن في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ [الجن: الآية ٢٣].

وإذا كانت ثلاثُ آيات من كتاب الله صريحة في التأبيد فلا ينبغي أن يكون هناك خلاف، كما قيل:

وليس كل خلاف جاء معتبراً ... إلاّ خلافاً له حظٌّ من النَّظرِ

وما ذكر من الخلاف في أبدية النار لا حظَّ له). تفسير سورة الكهف (ص 13).

وبيان خطأ الفاضل ذي السابقة الحسنة إذا كان بعلم وأدب ليس من تنقصه أو الحطّ من قيمته في شيء، ومن ظنّ هذا فهو جاهل بالواجبات والحقوق الشرعية.

قال الحافظ ابن رجب: (من خالف أمر الرسول ﷺ في شيء خطأ مع اجتهاده في طاعته ومتابعته أوامره؛ فإنه مغفور له لا تنقص درجته بذلك... وظنّهم أن الردّ على معظّم من عالم وصالح تنقص به، وليس كذلك، وبسبب الغفلة عن ذلك تبدل دين أهل الكتاب). مجموع رسائله (1/ 246).

وقال الحافظ ابن رجب أيضا: (الواجب على كلّ من بلغه أمر الرسول ﷺ وعرفه أن يبينه للأمة وينصح لهم، ويأمرهم باتباع أمره وإن خالف ذلك رأي عظيم من الأمة، فإن أمر الرسول ﷺ أحقّ أن يعظّم ويقتدى به من رأي معظّم قد خالف أمره في بعض الأشياء خطأ). مجموع رسائله (1/ 245).

ولا لوم من كان ردّه لخطأ من لخطأ من الأفاضل إذا كان ردّه بالضوابط الشرعية.

وقال الحافظ ابن رجب أيضا: (من عُرف منه أنه أراد بردِّه على العلماء النصيحة لله ورسوله فإنه يجب أن يُعامَل بالإكرام والاحترام والتعظيم كسائر أئمة المسلمين الذين

سبق ذكرهم وأمثالهم ومن تبعهم بإحسان.

ومن عرف منه أنه أراد بردّه عليهم التنقّص والذمّ وإظهار العيب فإنه يستحق أن يقابل بالعقوبة ليرتدع هو ونظراؤه عن هذه الرذائل المحرمة). مجموع رسائله (2/ 408).

أسلوب التنزل هو سبب الخطأ في نقد بعض العلماء لعقائد الإخوان المفلسين

يعتمد الإخوان المفلسون في الترويج لقضيتهم على أساليب غاية في الخبث والمكر، فيسلك أتباعهم كل الوسائل الممكنة لإظهار جماعتهم بمظهر أصحاب الحقّ الذين يجب نصرتهم، وإقناع الجماهير المسلمة بضرورة السير معهم في هدفهم.

ومن انتقدهم مارسوا عليه أساليب خبيثة جدا في الضغط عليه، أخبثها على الإطلاق هو أن هدفهم نبيل لا يمكن لأيّ مسلم كان أن يشكّك فيه، وهو "السعي إلى تحكيم الشريعة".

فلا يجد هؤلاء الأفاضل إلا التسليم بصحّة ما ذهبوا إليه، فيكتفون بنقدهم في أشياء غير هذا الشعار الذي يرفعونه، وهم على حقّ في نقدهم إياهم جزاهم الله خيرا وبارك في أعمالهم، ولكن لما كان ما يلبسون به هذا الأصل "السعي إلى تحكيم الشريعة" من تلبيسات عقدية خفيّة جدا تخفى على كثير من الأذكياء جاراهم هؤلاء الأفاضل في ذلك.

فمثلا: يقولون لك: (هل أنت مع تحكيم الشريعة أو مع بقاء الديمقرطية إلى الأبد؟!

فتقول: بل أنا مع تحكيم الشريعة، وهل هناك مسلم لا يحبّ تحكيم الشريعة؟!

فيقولون لك: إذن تعال! تعاون معنا لتحكيم الشريعة!

فتقول: لا يمكنني التعاون معكم وعندكم شركيات وبدع وتحزّب ولملمة وغيرها من الموبقات، فإذا أردتم أن أتعاون معكم فعليكم بتصفية عقائدكم وتنقية صفوفكم!).

واستعمال "أسلوب التنزل" هنا (فعليكم بكذا وكذا) هو بوّابة الخطأ في نقد الإخوان المفلسين!

والواجب أن يقول: (لا أتعاون معكم أبدا حتى لو نقّيتم أنفسكم بالماء والثلج والبرد؛ لسببين:

1- لأن ما تسلكونه مسلك بدعي لا يجوز.

2- وإلى شيء لم يأمرني الله به أصلا.

فقد جمعتم بين انحراف المسلك وتكليفنا بشيء لم يكلّفنا الله تعالى به).

وقد سبق بيان ذلك.

فإذا استطاع الإخونجية أن يضيفوا إلى هذه البدعة التي يوسوسون بها الإخونجية (يجب أن يحكم حكامنا بالشريعة، وهم يقصدون بالوجوب الكوني لا الوجوب الشرعي) زرع الغلّ والحقد ومعه ترك التعاون مع وليّ الأمر بالمعروف في نفس مخالفهم؛ فيجمعوا له بين فساد التصور وفساد العاطفة؛ فهنا أصيب مقاتله!

فبعضهم لضعف دينه وعلمه مع الزمن واستمرار الحكام في تحكيم الديمقراطية واستمرار الإخوان المفلسين في الفشل في الوصول للسلطة الذي يسمّونه "تحكيم الشريعة" يفشل معهم في مبادئه الأولى (فعليكم بكذا وكذا...)، وبعضهم لقوّة دينه وعلمه يبقى مفاصلا ومنابذا لهم؛ لكن لا ينتبه إلى خطورة ما لبّسوا به عليه!

تاريخ سمّ الإخوان المفلسين

لمّا كان هدف الإخوان المفلسين هو الوصول للسلطة والسيطرة التامة على المسلمين تمهيدا لتدميرهم والقضاء عليهم، فاجتذبوا من الماسونية وسيلة إبليسية تعتبر من أخبث الوسائل للتغلغل في وسط المجتمعات الإسلامية، وخاصة الشباب، وهاته الوسيلة اسمها "الدعوة الفردية"، وتقوم على احتلال الإخوان المفلسين لقلوب المسلمين فردا فردا، وهذا تطبيق عملي منهم لقاعدة مشهورة عندهم تقول: (أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم تقم لكم في أرضكم).

ولا سبيل للتغلغل في قلوب المسلمين فردا فردا إلا بحقن قلب كلّ مسلم وخاصة الشباب بفكرة عقدية شيطانية عنوانها: **(أن الله كلّف المسلمين فردا فردا بإقامة دولة تحكم بالإسلام)**، والتي يختصرونها بقولهم: **(الحاكمية)**، هاته الفكرة هي عبارة عن سمّ ناقع يسبّب أعراضا خطيرة جدا تجعل الفرد المسلم يعاني من موجات هاته الأعراض عناية دائمة، وفي همّ وغمّ مستمرّ، لا يهدأ باله حتى يصل الإخوان المفلسون للسلطة أو يوسّد الفرد المسلم المصاب بها في التراب.

يقول الشهبندر باسم الإسلام السروري عبدالرحمن عبدالخالق واصفا هاته الأوجاع والآلام: (لا يجد المسلم بالمفهوم الحقيقي للإسلام [يعني: الإخواني] لمعنى الإسلام

[يعني: إسلام حسن البنا] متنفّسه وراحته وأمنه وطمأنينته إلا في ظلّ مجتمع مسلم يحكم بشرع الله ويعظم حرماته ويحيي شعائره [يعني: وصول الإخوان للسلطة]) الأصول العلمية للدعوة السرورية المسمى بـ "الأصول العلمية للدعوة السلفية" (ص 51).

ولذلك يقول الإخوان المفلسون فيمن تمّ حقنه بهاته الحقنة الشيطانية: (فلان يحمل همّ الإسلام)! يعني بكلّ وضوح: (فلان يحمل سمّ الإخوان)!

وهاته الأعراض الخطيرة التي تسببها الحقنة العقدية الشيطانية **(أن الله كلّف المسلمين فردا فردا بإقامة دولة تحكم بالإسلام)** تظهر بين حين وآخر على الشباب خاصة بشكل عنيف؛ فيقوم مثلا:

1- بقتل أحد رجال الأمن الأبرياء أو في عملية انتحارية.

2- مشاركة في مظاهرة فوضوية ضد الدولة.

3- تكسير في مصلحة عامة من مصالح الدولة.

وربما ظهرت الحقنة بشكل لطيف؛ وهذه للراشدين خاصة؛ فيقوم مثلا:

1- إمام مسجد أو شخص معتنٍ بالعلم الشرعي يتلاعب بالقرآن والسنة خدمة لجماعة الإخوان.

2- عامل في وظيفة أو مؤسسة بالدولة بالتكاسل عن أداء عمله حتى يهيج الناس عليها.

3- تاجر يقوم باحتكار السلع أو بقّال يقوم بإخفائها حتى يكرّه الناس في دولته.

وبلغت الأعراض الخطيرة لهاته الحقنة الشيطانية **(أن الله كلّف المسلمين فردا فردا بإقامة دولة تحكم بالإسلام)** ببعضهم مبلغا لا يتصوره أحد من الجنون؛ وهذا مثال واحد رأيته في مقطع فيديو منشور:

1- شخص إخواني مصري في أزمة كورونا ينصح المصابين بنفس الفكرة الشيطانية من الإخوان أن يخرجوا للشوارع ويخالطوا الناس في الحافلات وأماكن التجمعات العامة وكلّ واحد منهم يعطس قدر المستطاع حتى ينشر فيروس كورونا، وبالتالي ينتشر المرض عند جميع الشعب، وتمتلأ المستشفيات ويحصل عجز في وظائف الدولة ومرافقها، وبالتالي تسقط الدولة!

بيان علاقة مسألة التمكين بما سبق من التقريرات العقدية

سؤال: هل التمكين من الأمر الكوني أم من الأمر الشرعي؟

جوابه: التمكين من الأمر الكوني؛ لأنه نتيجة أداء الأمر الشرعي، وهو الدعوة إلى الله ونشر الخير.

سؤال: هل الله سبحانه وتعالى أمرنا بالتمكين مطلقا؟

جوابه: لم يأمرنا الله عزّ وجلّ بالتمكين مطلقا لا أمر وجوب ولا أمر استحباب، بل لا يصحّ أصلا أن يوصف التمكين بنوعيه المذكورين بأي حكم من الأحكام التكليفية الخمسة (واجب، مستحب، مباح، مكروه، محرم)؛ لأنه من (الأمر الكوني)، وليس من (الأمر الشرعي) الذي تجري عليه الأحكام الخمسة.

وإنما أمرنا الله أمر إيجاب أو أمر استحباب فيما يتعلق بالأسباب والسبل الشرعية المؤدية إليه.

وبعبارة أوضح: لم يأمرنا الله عزّ وجلّ بتحكيم الحاكم للشريعة، وإنما أمرنا بنصحه بذلك والتعاون معه حتى يحكّمها، ولم يأمرنا الله عز وجلّ بالنصر على الأعداء، وإنما أمرنا باتخاذ العدّة الإيمانية والمادية لذلك، فضلا عن أن يأمرنا بالتمكين المجرّد الذي هو الوصول للسلطة.

وأما معتقد الإخوان في التمكين مطلقا فسيأتي.

سؤال: هل مجرّد التمكين خير محض أم شرّ محض أم ابتلاء؟

جوابه: عرفت من التقريرات العقدية السابقة أنه لا يوجد في الدنيا خير محض أو شرّ محض، وإنما كل شيء في الدنيا ابتلاء، سواء كان ابتلاء بالخير أم ابتلاء بالشر.

فكذلك مجرّد التمكين فلا يخرج عن كونه ابتلاء بالخير أو ابتلاء بالشرّ.

قال الله تعالى قاصا عن بني إسرائيل مع موسى عليه السلام: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.[الأعراف: 129].

قال الإمام ابن كثير في تفسيرها: (وهذا تحضيض لهم على العزم على الشكر، عند حلول النعم وزوال النقم). تفسير القرآن العظيم (3/ 460).

وهذا التمكين هو إزالة العدوّ الكافر والإنعام على المؤمنين بالاستخلاف، وهو ما يدندن حوله بكثرة ما يسمى بالحركات الإسلامية اليوم.

فمجرد التمكين ليس نعمة ولا نقمة مطلقة، وإنما ابتلاء لا يخرج عن عموم الابتلاءات في الدنيا، فإن كان استعمل في الخير فهو خير، وإن استعمل في الشرّ فهو شرّ.

ولكن، ما حقيقة معتقد الإخوان المفلسين في التمكين؟

هذا ما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى.

سؤال: هل يفرح الإنسان بمجرّد التمكين؟

جوابه: سبق أن عرفت أن مجرّد التمكين ليس نعمة مطلقة وليس هو النعمة الحقيقية؛ لأنه من الأمر الكوني، وإنما يقيد باستعماله في الخير؛ وهو أداء الأمر الشرعي والعبودية، فلا يفرح الإنسان فرحة مطلقة بأي شخص أو مجموعة وصلت للتمكين بطريقة شرعية حتى يرى ما يفعلون، والدليل قوله تعالى: ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾.

فإذا رأى المسلم دولة يحكّم حكّامها الشريعة وعلى رأسها القيام بأعظم حقوق رب العالمين وهو توحيده سبحانه وتعالى، وقد اختفت فيها مظاهر الشرك، فهنا يفرح الإنسان لأن الشريعة مطبقة حقيقة وليس مجرّد شعارات، وهذا ما رأيناه ونراه في المملكة العربية السعودية حفظها الله ورعاها.

فالمسلم يفرح غاية الفرح بغاية التمكين الذي هو تحقّق العبودية لله رب العالمين بين الناس وسعيهم في سبيلها، وهي الغاية التي خلقوا من أجلها، لا مجرد التمكين الذي هو ابتلاء غير مراد لذاته، وهذا في التمكين بالسبل الشرعية.

وإنما يفرح المسلم بمجرد التمكين إذا كان بالسبل الشرعية فرحة مقيدة، كما لو رأينا رجلا من أهل السنة السلفيين اختاره ولي الأمر ليكون وزيرا أو مستشارا له، فإذا قام هذا الوزير أو المستشار بما أمره الله جل وعلا من دعوة للتوحيد ونصرة لأهله، فهنا تكتمل فرحته.

أما الإخوان المفلسون؛ فلما كانوا يرون التمكين المجرّد هو النعمة الكبرى والغاية

العظمى؛ فإن فرحتهم به فرحة جنونية مع أن سبلهم فيه سبل بدعية! فجمعوا بين سوء الغاية وسوء الوسيلة.

سؤال: من المطالب بتحكيم الشريعة في الرعية؟

جوابه: الحاكم هو المطالب وحده بتحكيم الشريعة في الرعية، والرعية ليست مطالبة بتحكيمها ولا أن يحكمها حاكم يحكم بها.

قال النبي ﷺ: [كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيتِهِ، فالأميرُ الذي على الناسِ راعٍ عليهم وهو مسؤولٌ عنهم]، ولم يقل: (الرعية مسؤولة عن راعيها).

وهذا التقرير يقضي على أطماع الإخوان المفلسين من أساسها.

سؤال: هل يجب أن يحكم حكّامنا بالشريعة؟

جوابه: هاته المقولة **(يجب أن يحكم حكّامنا بالشريعة)** مقولة مجملة، والإجمال فيها خطير جدا، فـ (يجب) هنا تحتمل شيئين:

1- **الوجوب الشرعي:** وهذا حقّ؛ فيجب على حكّامنا أن يحكموا بالشريعة.

2- الوجوب الكوني: وهذا باطل؛ فلم يكلّفنا الله عزّ وجلّ بأن يكون حكّامنا حاكمين بالشريعة.

والإخوان المفلسون يلبّسون على الناس بإطلاق هاته المقولة، وإذا كان السامع لكلامهم لا يفرّق بين الوجوب الكوني والوجوب الشرعي وقع في حبائلهم.

سؤال: هل يجب على الله أن يمكّن لمن بذل جهده من عباده في سبيل ذلك؟

جوابه: التمكين فضل من الله ومنّة؛ لأنه من الأمر الكوني، وله في تقدير ذلك أو عدمه الحكمة البالغة، وليس واجبا على الله تعالى أن يمكن لمن بذل جهده في ذلك من عباده، كما أنه ليس واجبا عليه أن يهدي من دعي إلى الحقّ والهدى، وقد يعجّل الله لعباده شيئا من ذلك فتظهر ثمار أعمالهم في الدنيا، وقد يؤجّل الله لهم ثواب ذلك في الآخرة.

وقد سبق أن عرفت أنه لا واجب على الله تعالى سوى ما أوجبه على نفسه.

سؤال: هل يقدح عدم التمكين في عمل العامل، وهل يضرّ عدم هداية المدعوِّين في دعوة الداعي؟ وهل عدم استجابة الخلق يخالف النصر والتمكين؟

جوابه: لا يقدح ذلك في صحة دينه ولا صحة عمله، فإذا كان الأنبياء عليهم السلام قد يبتلون بأن لا يستجاب لهم أحد، وهم المؤيدون بالآيات والمعجزات، المنصورون في الدنيا والآخرة ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾، ففي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: [عُرضت عليّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد]، ومعاذ الله أن يكون هذا النبي الكريم الذي لم يستجب له أحد قصّر في دعوة قومه أو تهاون في ذلك، أو أن دعوته كانت إلى أمر غلط، فهم عليهم السلام أصحاب الدعوة العظمى: دعوة التوحيد، التي لا يدانيها دعوة، وإنما وقع ما وقع ابتلاء من الله عزّ وجل، و[أشدّ الناس بلاء الأنبياء].

وإن من صفات الداعي إلى الحق السائر على منهج السلف أنه: [لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ] رواه مسلم (1037).

فالعبرة الحقيقية هي بأداء الواجب الشرعي من دعوة الناس إلى الهدى والحقّ، وأن لا يتوانى الداعي إلى الله في ذلك أو يثبطه مثبّط عن تحقيق غايته ﴿إن عليك إلا البلاغ﴾، وهو النصرة والتمكين الحقيقي.

سؤال: هل يجوز أن يفعل الإنسان الأمر الشرعي ويقصد به حصول الأمر الكوني المحمود؟

جوابه: نعم، يجوز له ذلك، فكما أن الأحكام الشرعية سبيل تحقيق الغاية الأخروية العظمى (رضا الله سبحانه ودخول الجنة والنجاة من النار)، فهي كذلك سبيل لتحقيق المصالح الدنيوية من عزة وتمكين لأهل التوحيد والسنة، ورفعة للإسلام والمسلمين، وأمن وطمأنينة في بلدانهم ودحر وكسر لشوكة أعدائهم.

لكن لا يجوز أن يجعل ذلك همّه وغايته، بل همّه الأول والأخير هو القيام بالأمر الشرعي سعيا نحو الغاية الأخروية، وهي دخول الجنة.

فضلا عن أن يسلك سبلا بدعية في السعي نحو حصول الأمر الكوني، فضلا عن أن يجمع بين الانحراف في الوسائل والمقاصد كما هو منهج "جماعة الإخوان المفلسين".

وتوضيحه بمثال: شرعت صلاة الاستسقا عند القحط، ولكن غرضها الأصلي هو العبودية والتضرع إلى الله وسؤاله، فالإنسان إذا أجاب الله دعاءه فنزل المطر استبشر وحمد الله، وإن لم ينزل المطر لم يجعله ذلك يشكّ في صلاته أو يعتقد بطلانها؛ لأن

السقيا ليست الغرض الأساس من صلاة الاستسقاء.

فنقول: أن المسلم يقوم بنشر السنة والدين الصحيح أصالة، ويتبعه هداية الناس واستقامتهم فضلا من الله ومنّة، وقصده هذا هو إيمان منه بالوحي؛ كما في قوله تعالى: ﴿ولينصرن الله من ينصره﴾ وغيرها من النصوص، وأداءً لما أمره الله عزّ وجلّ به ﴿إن عليك إلا البلاغ﴾.

ثم هو سائر على طريق الحق سواء أدرك أفراد ذلك أو مجموعه أو لم يدرك شيئا منه؛ لأن ذلك ليس غرضه الأصلي.

عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: [عرضت علي الأمم؛ فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد...]. متفق عليه.

ولا شك أن الأنبياء -عليهم السلام- بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة؛ لكن الاستجابة لهم هي قدر من الله عز وجل، وله في ذلك سبحانه الحكمة البالغة، وكذلك التمكين للمسلمين في الأرض ليس واجبا على الله؛ كما تزعمه المعتزلة الموجبين على الله فعل الأصلح، بل ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

فالمقصود أن المسلم لا يعلق قلبه بأمر دنيوي؛ لا يدري أيدركه أو لا يدركه، سواء كان المسلم فردا أو جماعات.

كما أنه إن لم يدرك ذلك الفضل الدنيوي لا يجعله ذلك يشكّ في دينه أو عقيدته أو منهجه؛ لأن الله لم يبلّغه إياه ولم يمكّن له!

وليتذكر المسلم قول النبي ﷺ: [الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر]. رواه مسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، فهذا هو الأصل في الدنيا، وما جاء فيها من تمكين ورفعة فهو خلاف الأصل، فتمسك بالأصل، ولا تتمسك بخلافه.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي: (لما كانت الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، فصاحب السجن لا يزال في بلاء حتى يخرج منه، فإذا خرج من السجن أفضى إلى الرخاء والنعيم الدائم، وصاحب الجنة إذا خرج منها وقع في السجن الدائم). مجموع رسائله (1/ 223).

قال تعالى : ﴿والآخرة خير وأبقى﴾.

وعليه نقول: الغاية الأخروية (رضا الله سبحانه والفوز في الدار الآخرة) هي الأصل،

والغاية الدنيوية المحمودة (التمكين الشرعي) هي الفرع، ولا يضرّ (الغاية الأخروية = الأصل) أبدا عدم حصول (الغاية الدنيوية = الفرع) أو تأخر بعض أفرادها، بينما يضرّ غاية الضرر ولا ينفع أبدا ضياع (الغاية الأخروية = الأصل) وحصول (الغاية الدنيوية = الفرع)، فاحفظ هذا، فهو أسّ هلاك الإخوان المفلسين؛ لأن فساد النيّات أعظم الفساد.

سؤال: تفسير قوله تعالى: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾، وما جاء في معناها من الأحاديث والآثار؟

جوابه:

سؤال: هل عبارة (أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم تقم لكم على أرضكم) عبارة صحيحة؟

جوابه: هاته العبارة لو تأملها المسلم غاية التأمل وعرف مقصد صاحبها منها لعرف أنها من جنس عبارات الباطنية والزنادقة من القرامطة والحشاشين، ولكن قبل أن نبيّن ما عليها شرعا نتكلم عن أوّل من نطق بها، وهو المرشد الثاني لجماعة الإخوان حسن الهضيبي، وكان ماسونيا باعتراف أحد رموزهم المشاهير، وهو محمد الغزالي السقّا، فقد قال الغزالي: (ولقد سمعنا كلاماً كثيراً عن انتساب عددٍ من الماسون لِجماعة الأخوان بينهم الأستاذ حسن الهضيبي نفسهُ لجماعة الإخوان، ولكنّني لا أعرفُ بالضبط كيف استطاعتْ هذهِ الهيئات الكافرة بالإسلام أن تخترقَ جماعةً كبيرةً على النحو الذي فعلته**!**). كتاب"من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي" (ص 226. طبعة دار الشهاب باتنة)، وقد حذف الكلام من طبعات الكتاب التي بعدها.

وهذا هو يجعل مفهوم العبارة يتغيّر بحسب قائلها؛ فالهضيبي لا يقصد بها إلا: (أقيموا دولة الإخونجية الماسون التي تنتسب زورا للإسلام في قلوبكم تقم لكم في أرضكم).

وأما شرعا؛ فبيان بطلانها من عدّة وجوه:

1- أن الله تعالى أمرنا أن نعمر قلوبنا بتوحيده وطاعته وأن نجعل الغاية التي خلقنا من أجلها وهي العبودية أسمى مطالبنا، وذلك يستلزم أداء ما أمرنا به من واجبات والانتهاء عما نهانا عنه من محرمات، حتى نجمع بين سلامة الباطن والظاهر، ولم يرد فيما أمرنا الله به ورسوله من واجبات أنه تعالى أمرنا بإقامة دولة الإسلام في قلوبنا؛ وهذا الوجه وحده كاف في بطلانها.

2- أن تحكيم الشريعة في الرعية، وهو المقصود بكلمة (دولة الإسلام) من واجبات وليّ الأمر وحده مثلما هو من صلاحياته، ولم يكلّفنا الله عزّ وجلّ بتحكيم الشريعة في الرعية، وقد سبق بيان ذلك، وإنما أمرنا بنصح الحاكم للقيام بذلك فقط.

3- لو زعم زاعم أن المقصود بـ (إقامة دولة الإسلام) هو: أن يضع كلّ مسلم في باله أن ينصح لولي أمره ويتعاون معه حتى يحكم الشريعة، وهذا هو (التمكين الشرعي)؛ لقلنا: إن هذا المعنى مع بعده الشديد واقعا عن معنى الكلمة إلا أنه لا يعدو أن يكون من فروض الكفايات التي إذا قام بها بعض الناس سقطت عن الآخرين، فتكليف الناس جميعا بأن يعملوا لإقامة دولة الإسلام بهذا المعنى غلوّ مخالف للشرع.

4- أن قوله: (تقم لكم في أرضكم) يبطل كونها يقصد بها (التمكين الشرعي)، فهو كلام غير صحيح بهذا الإطلاق؛ فالحاكم قد يستجيب للناصح وقد لا يستجيب، بل هي باطلة بهذا الإطلاق حتى في التمكين البدعي الذي هو مسلك الإخوان المفلسين؛ فهم قد جرّبوا الرهان السياسي كثيرا من المرات وفشلوا في معظمها.

5- أن قوله: (تقم لكم في أرضكم) باطل أيضا حتى لو وصل الحاكم الذي سعينا لإيصاله للحكم ليحكم بالشريعة وسقط الحاكم الذي لا يحكم بالشريعة؛ لأن مجرّد وصوله للكرسي ليس تحكيما للشريعة، بل تحكيمه للشريعة حقيقة هو تحكيم الشريعة؛ فإقامة دولة الإسلام في قلوبنا لا يجعل حاكمنا حاكما للشريعة حتى يحكم هو بالشريعة.

6- أن إطلاق هاته الكلمة (دولة الإسلام) إطلاق مذموم، وفيه إيحاء واضح أنه لا توجد دول إسلامية حاليا، وهذا هو التكفير، ودولنا -والحمد لله- دول إسلامية وإن أصاب أكثرها ما أصابه من ديمقراطية في الحكم وغيرها من المخالفات الشرعية، وإذا علمت أن جماعة الإخوان المفلسين من منهجها تكفير غيرهم من المسلمين بشكل ممنهج لم تستغرب صدور هاته الكلمة منهم، والواجب أن يقيّد الكلام؛ فيقال مثلا: (دولة تحكيم الشريعة بشكل كامل).

ومن الفوائد حول هاته الكلمة: أن أحد التكفيريين زعم أن هاته الكلمة تتضمن الإرجاء، ومضمون كلامه أن الصواب فيها أن يقال: (يجب أن تسعوا حقيقة على أرض الواقع لإقامة دولة الإسلام حتى تقوم لكم).

وهذا فهم ساذج غبي؛ إذ كلّ صاحب فهم سليم يفهم أن معنى قول الهضيبي الماسوني: (في قلوبكم) تشمل عمل الجوارح أيضا؛ إذ صلاح القلب وفساده لا بدّ أن يظهر على

الجوارح، والقلب هو قائد الجوارح، وفي الحديث: [ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً، إذا صَلَحَتْ، صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإذا فَسَدَتْ، فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، ألا وهي القَلْبُ]. رواه البخاري (52)، ومسلم (1599).

وهذا الفهم السليم للكلمة مما يزيد الكلمة خطورة؛ فمعناه أن الإخواني في داخله قنبلة عقدية، وهاته القنبلة لا تدري متى تنفجر؛ لأنها لا تظهر في أفعاله للوهلة الأولى، وهذا أمر ملموس في كثير من الإخونجية ممن يحرصون على التكتّم والسرية والتلوّن الشديد، فإذا وقعت الأحداث كشفوا عن أقنعتهم، وهذا ما رأيناه عيانا في أحداث الربيع العبري، وهذا هو السرّ في جعل هذه الكلمة من جنس كلام الباطنية والزنادقة.

سؤال: ما رأيك في عبارة: (فلان يحمل همّ الإسلام)؟

جوابه: هاته العبارة لو كان صاحبها يقصد بالإسلام دين نبينا الكريم ﷺ لكان قوله باطلا، فالله سبحانه وتعالى نهى نبيه ﷺ أن يهتمّ ويغتمّ لعدم استجابة المدعوين من بني قومه لدعوته؛ وقد سبق الكلام عن هذا، فكيف والإخواني حينما يقولها يقصد بها همّ إقامة دولتهم الماسونية.

سؤال: لماذا شرع أصل إنكار المنكر والردّ على المخالف؟

جوابه: أصل إنكارالمنكر والردّ على المخالف شرع من أجل حماية الدين وجماعة المسلمين المجتمعة تحت وليّ أمرهم، وليس لحماية التمكين وأهله من الهزيمة من الجماعات التي تتخذ من الوثوب على السلطة دينا تتقرب به إلى الله عزّ وجل، مثل جماعة الإخوان المفلسين.

سؤال: فإن قال قائل: لكن لا تنكر أن ما روي عن بعض السلف: [أنا ملك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسبّ الملوك، ولكن توبوا إليّ أعطفهم عليكم]، وما في معناها من الآثار، قد تكون صحيحة إذا تخلّينا عن منازعة الحاكم في سلطانه أصلا واشتغلنا بإصلاح المجتمع فلما صلح المجتمع اضطرّ الحاكم تلقائيا أن يصلح حاله؟!

جوابه: نعم، إن الله على كلّ شي قدير، ولكن...

إن الله جلّ وعلا أمر باتخاذ الأسباب الشرعية لإصلاح الراعي مثل الرعية، وهي النصيحة لكلا الطرفين؛ بل قدّم نصيحة الراعي على الرعية، ألم تقرأ الحديث: [ولأئمة

المسلمين وعامتهم]؛ فبدأ بولي الأمر قبل عموم الشعب!

ثمّ إن ما ذكرته من أسلوب لا يعدو أن يكون حلّا من الحلول قد يقع أو لا يقع، أما أن نحصر الحلول الشرعية فيه وحده كما يدندن حوله من ينظّر للاستبطاء في مسألة التمكين فباطل لا يجوز، والاعتماد على هذا الأسلوب وحده يجعلنا نضيّع شعيرة عظيمة من الشعائر، وهي النصيحة لولي الأمر، فقد جاءت السنة بتعظيم مكانتها والحثّ عليها، وقد سبق ذكر شي من ذلك.

وهناك وجه آخر للجواب عن استدلالك بمثل هاته الآثار؛ وهو: أن قول بعض السلف : [ولكن توبوا إلى الله أعطّفهم عليكم]؛ أليس من مقتضى التوبة -توبة الشعوب هذه- أن تتوب من جميع الذنوب بفعل ما يلزمها من واجبات، ومن الواجبات الشرعية الكفائية التي إذا تركتها الأمة كلّها أثمت: النصيحة لولي الأمر، ولا يسقط الإثم عن عمومها إلا بقيام بعض أفرادها بأداء هذا الواجب.

سؤال: ذكرتم من قبل تقسيم الجماعة إلى جماعة أديان وجماعة أبدان، ثم قلتم: (فمن يريد تقييد السلفية بوصف دون اجتماع خصال السنة كلها فقد خالف منهج السلف)، فهل من توضيح أكثر؟

جوابه: من خصائص الإخوان المفلسين هو تجميع أتباعهم وفق صفة معينة غير الصفة التي أمر الله تعالى بها، وهي صفة الاجتماع على ولي الأمر والانضمام لجماعة المسلمين، ولذلك أطلقوا القاعدة المعروفة (نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه)، وسمّوا أتباعهم بـ(الأخ)، والأخ حينما يجتمع مع (الأخ) يصبح (إخوان)، وهي تسميتهم الأصلية، وقد قال الإمام خليفة المسلمين في زمنه عمر بن عبد العزيز رحمه الله: [إذا رأيت القوم يتناجون في أمر دينهم دون العامة فاعلم على تأسيس ضلالة]. رواه الدارمي في السنن وغيره، وهذا لأنهم فعلا أهل ضلالة، ولكن هؤلاء لم يكن لهم مظهر مميز، بل غاية ما يجمعهم هو الفكرة المتفق عليها.

ثمّ لما ظهر التيار السروري الذي يظهر العناية بالهدي الظاهر مثل إعفاء اللحية وتقصير الثوب، فيعملون مع بعض ويسافرون مع بعض ويحضرون مناسبات وأفراح بعضهم البعض ويبيعون ويشترون من بعضهم ومع بعضهم؛ ويقولون: (حتى يقوى جناحنا بالتعاون والتآزر)، وأصبح من السهل عند عامة الناس تمييز أتباعه لاختلاف مظهرهم الخارجي عن عامة الناس، ولكن لم تختلف تجمعاتهم في جوهرها عن تجمعات باقي أجنحة الإخوان، وكانوا بذلك أول من نشر هاته البدعة في أوساط الإسلام، وهي

تجمع أهل الهدي الظاهر تجمّعا غير الاجتماع على ولي الأمر مع عامة المسلمين.

وحتى يعطوا صبغة شرعية لقيامهم بهاته الاجتماعات خلطوا بين ما يتكلم من النصوص عن اجتماع الأديان باجتماع الأبدان، فصار مفهوم الأثر السلفي مثلا: [ما أقلّ أهل السنة] هو ذلك الشخص الذي يعفي لحيته ويقصّر ثوبه حتى لو كان تكفيريا مبتدعا، ولذلك تجدهم يعظّمون جانب المعاصي أكثر من تعظيم جانب البدع؛ فيقولون لمن حلق لحيته: (ذلك لم يعد أخا سلفيا)؛ فيقاطعونه، فصار الولاء والبراء على المظهر الخارجي، وبذلك قيّدوا مفهوم السلفية بمن ظاهره الاستقامة، وقاموا بتبديع الشخص بالمعصية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (إن أهل البدع شرّ من أهل المعاصي الشهوانية، بالسنة والإجماع، فإن النبي ﷺ أمر بقتال الخوارج ونهى عن قتال أئمة الظلم). مجموع الفتاوى (٢٠/١٠٣).

والواجب على السلفي أن يسعى بالتعاون مع ولاة أمره وإخوانه من الرعية بالمعروف وبذل النصيحة لهم حتى يستقيم أمرهم وحالهم قدر المستطاع ، فيقوى جانب دولته المسلمة وتستعيد عزّها ومجدها.

وشعاره في ذلك شعار الأنبياء عليهم السلام من قبله ﴿إن أريد إلا الإصلاح ما استعطت﴾.

سؤال: كيف تدعونا للتعاون مع الحكام، ونحن ما رأيناهم يسعون إلا في ترسيخ الديمقراطية ونشر الفساد والفجور وإرضاء الغرب الكافر؟!

جوابه: إن التعاون مع ولي الأمر مقيد بالتعاون بالمعروف وعلى البر والتقوى، فإن رأيت خيرا أعنتهم عليه وإن رأيت شرّا فابتعد عنه وانصح لهم إن استعطت.

وأما قولك: **(ما رأيناهم يسعون إلا في ترسيخ الديمقراطية ونشر الفساد والفجور وإرضاء الغرب الكافر)**؛ ففيه ظلم وعدوان، والله لا يرضى بالظلم للكافر فما بالك للمسلم، فما بالك إذا كان المسلم أحد ممن عظم الله مكانته وهو ولي الأمر.

فولاة أمور المسلمين الحاليين مسلمون مثلنا عندهم خير وعندهم شرّ، وبعضهم أفضل من بعض، وبعضهم فيه خير عظيم لا يدانيه خيرٌ منذ قرون بعيدة في تاريخ الإسلام، وهي الدولة السعودية حرسها الله تعالى بما حباها من نصرة للتوحيد والسنة ومحاربة للشرك والبدع وتحكيم للشريعة بصفة رسمية لا توجد في أيّ دولة، فضلا عن عنايتها

بالحرمين الشريفين والدعوة إلى الله تعالى.

وبعض الدول مثل الجزائر الحبيبة في ولاة أمرها خير لا ينكره إلا جاحد، فنحن نراهم يعتنون بشعائر الإسلام الظاهرة فيبنون المساجد وما يلزمها من كهرباء وماء وأجور أئمتها كلها مجانا من خزينة الدولة، وترى المصليات مخصصة حتى في مؤسسات الدولة مثل الثكنات العسكرية، وينظّمون الذهاب للحج والعمرة، وغيرها، وفيهم إسلام ظاهر من أداء الصلاة والصيام وحضور مساجد المسلمين، فعلى المسلم شكر ربّه على هاته النعمة لا كفرانها.

وما عندهم من تقصير وذنوب لا يجعل المسلم يبخسهم حقّهم، وليدع لهم بالصلاح ولينصح لهم إن استطاع، وليتذكر وصية نبيه الكريم ﷺ حينما قال لأصحابه رضي الله عنهم: [سَتَكُونُ أثَرَةٌ وأُمُورٌ تُنْكِرُونَها، قالوا: يا رَسولَ اللَّهِ، فَما تَأْمُرُنا؟ قالَ: تُؤَدُّونَ الحَقَّ الذي علَيْكُم، وتَسْأَلُونَ اللَّهَ الذي لَكُمْ]. رواه البخاري (3603)، ومسلم (1843).

سؤال: إن ما تدعو إليه من عدم محاسبة الحاكم من طرف الشعب لهو عين العلمانية والليبرالية التي تدعو لفصل الدين عن الدولة وترك الحكّام يلعبون ويمرحون كما يشاؤون! ثم تدعونا للتعاون والجهاد معهم، فيورطوننا في المقاتل والمذابح لتسلم لهم كراسيهم، وإن متَّ متَّ في سبيل الديمقراطية!

جوابه: إن ما أدعو إليه هو ما ورد في الكتاب والسنة وما قرّره علماء الشريعة، ولكن لأنك ألفت الديمقراطية وأوضارها انقلبت الموازين عندك فصرت ترى كلّ ما يخالفها مخالفة للشريعة!

وأما الجهاد معهم والتعاون معهم فيقيّد بالمعروف وما أجازته الشريعة، فحينما تموت فستموت في سبيل المعروف الذي أجازته الشريعة ورضيه ربّ العالمين، فكما لن يفيدك تحكيم الحاكم للشريعة في جهادك معه وأنت فاسد النيّة، فكذلك لن يضرّك تحكيم الحاكم للديمقراطية في جهادك معه وأنت صالح النية.

فالعبرة هنا بتحقق الشروط، وهي كون الجهاد جهادا مباحا كقتال الكفار أو الخوارج، وكونه تحت راية ولي الأمر، وقد سبق كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في التفصيل في مسألة التعاون مع ولي الأمر في المعروف.

سؤال: إذن أنت تدعونا لأن نبقى نتفرج في الحكام وهم يعيثون في ثروات البلد فسادا ويهلكون أنفسهم في سبيل الديمقراطية، ثم إذا قالوا لنا قدّموا رقابكم من أجل كراسيّنا

قدمناها لهم!!

جوابه: لا والله! ما قلنا لكم تفرّجوا فيهم وهم يفعلون ويفعلون، بل قلنا لكم بصريح العبارة (انصحوا لهم غاية النصح) وابذلوا كلّ سبيل لتعريفهم بالدين والهدى ومنهج السلف الصالح، وعاملوهم كإخوانكم الذين في بيوتكم، ترجون لهم الخير كما ترجونه لأنفسكم.

سبحان الله! أم يقل النبي ﷺ: [لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حتَّى يُحِبَّ لأخِيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ].رواه البخاري (13) ومسلم (45).

فإن أبوا فحسابهم على ربّهم.

والعجيب: أن من يقول هذا الكلام غالبهم من الإخوان المفلسين الذين يهلكون أنفسهم من أجل السمع والطاعة لمرشدهم الماسوني الذي وضعه الغرب الكافر لتدمير الإسلام والمسلمين، فتجده يسمع ويطيع ويبذل نفسه في المظاهرات والتفجيرات فقط ليرضى عنه مرشد الجماعة الذي كلّما وصل الإخوان المفلسون للسلطة تبين أنهم يسعون بكل جدٍّ لتطبيق الديمقراطية؛ لأنهم أصلا صنعوا لخدمة ديمقراطية من صنعوهم.

فديمقراطية الحكام حرام يحرم معها كلّ شيء، وديمقراطية الإخوان المفلسين حلال يحلّ معها كلّ شيء!

سؤال: هل يمكن أن تذكر لنا بعض الأدلة على أن الفاسق حليق اللحية والذي يفعل المعاصي يعتبر أخا سلفيا، فإننا نرى من يستنكر إطلاق ذلك؟

جوابه: طيب، هاك بعض الأدلة:

1- عن أبي هريرة رضي الله عنه: [أُتِيَ النبيُّ ﷺ بسَكْرَانَ، فأمَرَ بضَرْبِهِ. فَمِنَّا مَن يَضْرِبُهُ بيَدِهِ ومِنَّا مَن يَضْرِبُهُ بنَعْلِهِ ومِنَّا مَن يَضْرِبُهُ بثَوْبِهِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ رَجُلٌ: ما له أَخْزَاهُ اللَّهُ، فَقَالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ: لا تَكُونُوا عَوْنَ الشَّيْطَانِ علَى أَخِيكُمْ]. رواه البخاري (6781).

فسماه (أخا) لهم مع كونه شرب الخمر، ولو قلت لواحد من هؤلاء الجهلة أصلحهم الله إن الأخ فلانا يشرب الخمر لعدّك مستهزئا بالدين.

2- قال الإمام الأثري قَالَ ابْن بطة العكبري الحنبلي: [اجتاز بعض المحبين للبربهاري ممن يحضر مجلسه من العوام وهو سكران! عَلَى بدعي، فَقَالَ البدعي: هَؤُلاءِ الحنبلية!!

قَالَ: فرجع إِلَيْه ، وَقَالَ: الحنبلية عَلَى ثلاثة: أصناف صنف زهاد، يصومون ويصلون.

وصنف يكتبون ويتفقهون.

وصنف يصفعون لكل مخالف مثلك. وصفعه وأوجعه). طبقات الحنابلة لابن أبي يعلي (2 /43).

ما أشبه ذلك البدعي بجهلة زماننا حينما يحصرون السلفية فيمن كان ظاهره الاستقامة.

3- قَالَ إمام أهل السنة أحمد بن حنبل: [قبور أهل السنة من أهل الكبائر روضة وقبور أهل البدعة من الزهاد حفرة، فساق أهل السنة أولياء الله وزهاد أهل البدعة أعداء الله].طبقات الحنابلة (1/ 184).

الله أكبر! تأمّل قوله: (أهل الكبائر)، وليس الكلام عن ترك سنة أو فعل مكروه أو محرم دون الكبائر كحلق اللحية وإسبال الثوب.

سؤال: ذكرت فيما مضى أن بعض العلماء الأفاضل انخدعوا بحسن نية بشعار الحاكمية الذي يرفعه الإخوان المفلسون، لو بيّنت لنا كيف كان هذا الأمر؟

جوابه: يجب قبل أن نتكلم عن أي شيء في هذا الفصل أن ننبه إلى أمرين مهمين جدا، وهما:

1- أن المسألة "مسألة التمكين" من مسائل العقيدة الخفية، وليس من السهل إدراك وجه الصواب فيها، وقد سبق كلام شيخ الإسلام ابن تيمية أن بعض المسائل قد يخفى وجه الصواب فيها حتى على الأذكياء.

2- أن المسألة مسألة عقدية يعتبر القول فيها قولا واحدا، والقول الآخر يعتبر قولا شاذا باطلا، ولا يجوز لأحد أن يستدلّ بزلة العالم الفلاني فيها لينصر هواه وما نشأ عليه، وقد سبق نقل كلام العلماء في تقليد من وقع في مثل هاته المسائل.

فاحفظ هذين الأمرين جدا واستصحبهما فيما يأتي.

من هؤلاء الأفاضل:

الشيخ محمد ناصر الدين الألباني: كان الشيخ الجليل من كبار المجددين في زماننا الذين رفعوا لواء نصرة السنة ومحاربة البدعة ولم يلتفتوا لأهواء الناس وضغوطاتهم، وأفنى عمره في خدمة العلم الشرعي بين تحقيق وتخريج وتأليف.

وما كان يهتمّ بشأن الأحزاب السياسية ولا المناصب ولا البرلمانات ولا غيرها من حطام الدنيا العاجل.

وقال في آخر حياته بكلّ وضوح: (ليس صوابا أن يقال بأن الإخوان المسلمين من أهل السنة؛ لأنهم يحاربون السنة). سلسلة الهدى والنور (٣٥٦).

قال الشيخ العلامة ربيع المدخلي مبينا أن السلفيين وإن كانوا يبجلون الألباني ويحترمونه إلا أنهم لا يقلّدونه، بل ردّوا على أخطائه وزلّاته: (نحن نرفض أخطاء الألباني، وأخطاء من هو أكبر وأجلّ منه، ولا ندين الله عزّ وجلّ إلا بالحقّ الثابت بالكتاب والسنة بفهم سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ومن سار على نهجهم في هذا المنهج وقواعده، لا سيما قاعدة: [كلّ يؤخذ من قوله ويردّ؛ إلا رسول الله ﷺ]). إزهاق أباطيل عبداللطيف باشميل (ص 13). ثم أفاض الشيخ ربيع المدخلي في ذكر من انتقد الألباني وضرب لذلك عدة أمثلة في مسائل متنوعة.

ثم قال الشيخ أيضا مبرّئا ساحة الشيخ الألباني من الهوى والدافع السياسي: (وأما سعيه لإقامة دولة؛ فالعقلاء المنصفون يعرفون من كتبه الكثيرة ومن أشرطته الكثيرة: أنه ضدّ الأحزاب السياسية عقائديا وفكريا وسياسيا، وهو ضدّ الثورات والانقلابات، والبرلمانات والانتخابات، وكل الوسائل المنافية للإسلام، بل يدعو إلى إصلاح المسلمين عموما حكّاما ومحكومين بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة) نفس المصدر (ص 30-31).

وقال الشيخ العلامة عبدالسلام البرجس رحمه الله: (إن الألباني يختلف تمام الاختلاف عن الأحزاب والتنظيمات والجماعات، فهو عالم، يربّي بالعلم الشرعي، ويحرّم التحزّب وتنظيمه). مقال "قد تجاوزت الحد" (ص).

ولكن الشيخ الفاضل رحمه الله أحسن الظنّ بهذا الشعار الذي يرفعونه (أن الله كلّفنا بإقامة دولة تحكم بالإسلام) غير مدرك لبطلان سعيهم من أصله، ووقع له بسبب ذلك شيء من التقريرات المجانبة للصواب، أحسن الله سعيه وجعله مأجورا معذورا.

سؤال: ذكرت أن بعض طلبة الشيخ الألباني تابعه على هذا، فمن هم؟

جواب: كان للشيخ الألباني عدد ممن درس عليه أو جالسه، ومن أبرزهم:

الشيخ العلامة ربيع بن هادي المدخلي: عرف -حفظه الله- بالغيرة الشديدة على دين الله

تعالى -نحسبه والله حسيبه- حتى ضرب بذلك أروع الأمثلة في كفاح أهل البدع والضلال بمختلف اتجاهاتهم، وصار بذلك علما على منابذة الحزبيين من الإخوان المفلسين وأذنابهم.

ولم يتابع الشيخ الألباني في كلّ شيء، بل خالفه اتباعا للدليل في عدد من المسائل، وما قيل في الاعتذار لشيخه الألباني في موقفه من هاته المسألة يقال في حقّه أيضا، فالمقام واحد.

منها مثلا قول الشيخ ربيع المدخلي حفظه الله ناصحا الذين يرفعون شعار الحاكمية بإبداء موقف واضح من القبوريين والمعطلة وأعمالهم: (فإن كان إخوتنا المهتمون بالحاكمية يدركون ويوقنون أن هؤلاء الذين يعملون هاته الأعمال ويعتقدونها مخالفون لحاكمية الله وغير خاضعين لها في هذه التصرفات، فليشمرّوا عن ساعد الجدّ وليخوضوا هذا الميدان بكلّ قوّة وجدّ، وليضعوا فيها المناهج، وليؤسسوا لها المدارس، وليؤلفوا الكتب، وليهزّوا أعواد المنابر بالخطب البليغة والتوجيهات السديدة). منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله فيه الحكمة والعقل (ص 183).

وقال أيضا منتقدا الإخوان المفلسين في عدم سلوكهم مسلك التصفية والتربية: (أما الدعوات إلى مجرد التجميع واللملمة على الدخل والدخن، والجمع بين المتناقضات من العقائد والمناهج، والمتنافرات بين القلوب والمشاعر، فإن ذلك لا يحقّق شيئا يرضي الله ويرفع سخطه عمن خالفوا ما رضيه وشرعه من الدين عقائد وأحكام، ولن يتحقق للدعوات السياسية المستعجلة ما تخيله من قيام دولة قوية تواجه الأعداء من اليهود والنصارى والغزاة والمستعمرين وتقف في وجه الهزّات والأعاصير، ثم في الوقت نفسه تكون هذه الجهود والمحاولات بعيدة كلّ البعد عن القيام بواجب النصيحة للأمة في دينها وعقائدها وعباداتها التي بلغت مبلغا خطيرا من الفساد والحيدة عن صراط الله الحقّ.

فكيف يرضى ربنا عن تجمعات صورية جوفاء، على البدع والضلالات والخرافات؟!

وكيف يرضى عن دولة تقوم على المتنافر من العقائد والمسالك والمناهج، وعلى الغرائب والعجائب من المتناقضات؟!). النصيحة هي المسؤولية المشتركة (ص 26-27).

والصواب شرعا أن يقول الشيخ: (والله! لو دعوتم للتوحيد طول حياتكم أو ما دعوتم، ونقّيتم نفوسكم من البدع وصفوفكم من جميع المبتدعة أو تلبستم بجميع البدع وجمعتم بين

النطيحة والمتردية، ووصلتم للتمكين الذي أفنيتم أعماركم فيه أم لم تصلوا طول حياتكم، فأنتم مبتدعة ضلّال ما دامت هاته الفكرة (أن الله كلّفنا بإقامة دولة تحكم بالإسلام) في قلوبكم، فإن تبتم منها فخير، وإن لم تتوبوا فجزاؤكم أن يكشف أمركم للناس وتفضحوا).

فلا يصحّ شرعا أن تدعو المبتدع إلى أن يزكّي بدعته بعمل صالح، ولكن خفي على الشيخ كونها بدعة من أساسها كما سبق أن فصلّنا في ذلك، كما أنه واضح أن الشيخ قصد بذلك النصيحة للقوم لو كانوا يبحثون عن النصيحة، أحسن الله سعيه وجعله مأجورا معذورا.

والشيخان الجليلان محمد ناصر الدين الألباني وربيع بن هادي المدخلي حبيبان إلينا، ولكن الحقّ أحبّ إلينا منهما.

قال الإمام ابن قيم الجوزية في حقّ الشيخ أبي إسماعيل الهروي الملقّب بشيخ الإسلام: (شيخ الإسلام حبيبٌ إلينا، والحقُّ أحبُّ إلينا منه، وكلُّ من عدا المعصوم فمأخوذٌ من قوله ومتروك). مدارج السالكين (2/ 262).

يسر الله إتمام الكتاب...